

عبد النعم محمد خيلاف

العقل المؤمن أو الدين من طريق الفكر

الطبعة الأولى

شعبان ١٣٧٠ هـ - مايو ١٩٥١

obeyikandi.com

إهداء

إلى (محمد ... ؟) الكاتب البيروتي المجهول .. الذى خلع على شخصى عنوان هذا الكتاب ، ونفض بين يديّ شكوك « قلبه العاقل » فى رسالة مطوّلة أرسلها إلىّ سنة ١٩٣٩ من بيروت وأنا بالعراق ، وحمّلتنى أمانة للفكر الإسلامى بالرد على مافيهما ، وكان تتبع هذه الشكوك بالدحض مفتاح البحث فى كثير من قضايا هذه السلسلة .

obeykandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بيان

هذا الكتاب هو الحلقة الثانية من السلسلة المعنونة [نحو أساس روحي للحضارة المادية] والتي أردت بها أداء واجب من واجبات الفكر الإسلامي الحديث في التمهيد العقلي والوجداني لقيام الحضارة الروحية المادية المنشودة .

وقد نشر أكثر بحوث هذه السلسلة في المجلات الأدبية العربية ابتداء من سنة ١٩٣٧ . وأسجل هذا التاريخ ليقف مؤرخو الفكر ونقاد الحركة الأدبية العربية على منشأ دعوات زعم مدَّعوها أنهم مبتدعوها بعد أن حرَّفوها وأحدثوا حولها ضجة من الدعاية المفتعلة ، حبًّا في الشهرة المحرمة . . بل إن أحدهم — وهو عبد الله القصيمي النجدي — مؤلف « هذى هي الأغلال » لم يتورع أن يسطو على [أومن بالإنسان] ويملاؤه ثلث كتابه ، وعلى مقالات (الحياة صادقة) ويبنى عليها فصولاً طويلة من كتابه كذلك ، ثم لا يشير من قريب أو بعيد إلى من سبقه ، كما توجب الأمانة العلمية ، وبعد ذلك يضع الجملة التالية على صدر كتابه « سيقول مؤرخو الفكر : إنه بهذا الكتاب ابتدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل » و « إنه ثورة في فهم الدين والعقل والحياة » . كأن مؤرخي الفكر عريان لا يتلمسون مصادر الآراء !

ولما لقي صديقنا الأستاذ سيد قطب ليسأله رأيه في كتابه ، سأله الأستاذ قطب بدوره : هل اطلع على [أومن بالإنسان] ؛ فأنكر اطلاعه ! مع أن الكتاب كان قد طبع سنة ١٩٤٥ وكان أغلب فصوله قد نشر هو ومقالات

(الحياة صادقة) فى مجلتى الرسالة والثقافة فى مدى أربع سنوات قبل ذلك ،
وليس من المعقول ألا يطلع (القصيمى) على هاتين المجلتين طول هذه
المدة ، بل الواقع أنه قابلى مرة فى ندوة لجنة التأليف والترجمة والنشر
بالقاهرة قبل طبع الكتاب ، وعند ما عرف اسمى سألنى : ألا تزال تؤمن
بالإنسان . . ؟ وناقشنى مناقشة عابرة حول الموضوع ، وأظن إذا لم تخفى
الذاكرة أن باحثاً نجدياً شهد هذا الحديث لعل لقبه الأزهرى أو
المزروع . .

فانظر وتأمل تجاهل القصيمى حينما سأل الأستاذ قطب بعد معرفته الأكيدة
لشخصى وفكرتى ، ومناقشته لى !!

وحينما عقيت فى مجلة الرسالة فى ٢٥/١١/١٩٤٦ على مقال الأستاذ قطب
عن القصيمى ومؤلفه فى مجلة (السوادى) ، لم أذكر مقابلتى للقصيمى إذ لم
أتذكر أننى قابلته تلك المقابلة السابقة وأنه سألنى سؤاله المذكور ، لأن اسمه
لم يعلق بذاكرتى ، فلما رأيت شخصه فى (دار الحكمة) بعد صدور كتابه وتعليقى
على نقد الأستاذ سيد ، لم أعرف أن ذلك الشخص هو صاحب هذا الاسم
وذلك الإنم ! حتى عرفنى به الأستاذ الصحفى محيى الدين رضا ، وقد حسب
أننى عرفته وتجاهلته غضباً منى لفعلته . . فقلت له : أهو هذا ؟ واتجهت إليه
وقد تذكرت مقابلتنا فى ندوة اللجنة وزاد عجبى ، وقلت له : أنت هو ! ومع
ذلك تفكر ؟ وذكرته بمقابلتنا وسؤاله لى ، فأسقط فى يده وأخذته الحرج حتى
بدا زبد شذقيه . .

غير أن الفكر الحرام كاللآل الحرام . . . جذوة من النار تأكل الحلال وتذهب به . . . وقد ذهب السطو على فكرتى الإيمان بالإنسان وصدق الحياة بالفكر الحلال فى ذهن القصيمى ، إذ انحرف بهما انحرافاً شديداً خرج بهما عن مجال التأييد للإيمان ، والسعى لجعله أساساً لهذه الحضارة المادية المجنونة ، وهو ما أردته بهما ، إلى مجال الهدم والتجريح والإزراء واليأس والانطلاق الخابط . .

وكان هذا الانحراف طبيعياً لأن الفكرة ليست منبثقة من منبعها الأصل ، فلم تخرج بهالاتها من الإشراق والإخلاص ، وضوابطها من الثقافة العلمية المادية والروحىة التى تعصمها من الزيغ والشطط ، وإنما خرجت قلقة مضطربة تحاول أن تتجرد من أنوائها وألفاظها الأصلية ، ناظرة إلى الشهرة المحرمة . لا إلى وجه الله والإنسانية ، تفتعل الضجة افتعالا وتنادى على صاحبها فى الأسواق وتستجدى التقرىظ بالطواف فى النوادى والمجالس ، ويهيمها ثناء الملاحظة والمتعصبين ضد الدين عامة والإسلام خاصة ، وقد أهدى مدعىها نسخة من كتابه إلى كل أديب تقريباً فى مصر والأقطار العربية إلا واحداً ! هو طبعاً صاحبها الأول . . .

ومع ذلك أشعر بقدر غير قليل من السرور إذ أجد الأفكار التى عشت مدة طويلة فى محراب الحق لاستخلاصها وتجديد الفكرة الدينية بها فى هذا العصر الفاجر المجنون ، معتمداً على العقل والعلم اللذين هما أقنوما إله هذا العصر فيما يزعم الزاعمون — أجدها قد لقيت صداها وآثارها حتى فى ذهن عالم من علماء نجد ! ومم من مم فى محافظتهم ، فما لبث أن اختطفها وانطلق

ثائراً بها ينادى : إنها ابتداء رؤية الأمم العربية طريق العقل ، وإنها ثورة
في فهم العقل والدين الحياة . . .

ولولم يكن قد انحرف بها إلى نتائج باطلة ليست لها ولم أردها ، لتركتهالـه ،
علماً منى أن النقد اليقظ وتاريخ الفكر سيؤدّ كل شيء إلى صاحبه ويصرف
زعم الدّعى إلى الأصل . . .

وأحسب أنه قد آن الأوان لمن تشريع يصون الملكية الأدبية
ويردع لصوص الأفكار ، وإلهم لكثير . . .

عبد المنعم محمد صفوف
القاهرة في يوم الجمعة ٢٩ من رجب سنة ١٣٧٠ هـ
٥ مايو سنة ١٩٥١

مسألة المسائل

المسألة الدينية هي أعظم مسائل الحياة قيمة وتشويقاً وإثارة للجانب السامى فى النفس البشرية والتفكير والرجاء، والرغبة والرغبة والإحساس بالجمال، وقد كانت وما زالت محور بحوث العقول المفكرة وعقول الجماهير، لأنها تتصل بأعماق الفطرة ويترتب عليها قيمة الحياة وقيم الحق والخير فيها، ومعرفة الغاية منها. وما برحت « ما نحن ؟ وما الكون ؟ ومن أين ؟ وإلى أين ؟ وماذا وراء الطبيعة ؟ وما هي الغاية ؟ » أسئلة خالدة تثيرها القوى المفكرة فى كل فرد، تضل الجماعة البشرية أو تهتدى حسب توفيقها فى الإجابة عليها.

وهذا الكتاب يعالج المسألة الدينية ببيان جذورها فى حياة الفكر.

والناس فى حاجة ماسة إلى الحديث المعقول عنها فى كل العصور وخاصةً هذا العصر المادى، إذ فيها أكبر معين لبناء الحضارة المادية على أوتاد ثابتة من الإيمان بـقيم الحق والخير والجمال، والتلطيف عنفها وقسوتها، إذ منشأ ضلال الحياة الراهنة هو ترك الاستعانة بالهدى الجرب من هذه المسألة.

وقد ثبت أن من الخير المؤكد للناس أن يحكموا بحكومة العقل والوجدان والضمير من داخل نفوسهم قبل أن تحكم أجسامهم وظواهر أعمالهم بالقوانين، لأن حكومة الوجدان راعيها المطلع فى كل حين على خائنة الأعين وما تخفى الصدور، بينما حكومة الأجسام لا ترى إلا ما فى الشوارع، ولن تستطيع أكثر من هذا... ولن تقوم حكومة العقل والوجدان إلا فى ظلال الدين الصحيح

الكفيل بإقناع الناس فيما بينهم وبين أنفسهم بقيم الحق والخير والفضيلة ،
والتجريح الباطل والشر والإثم والجريمة .

ولن يغرس صفات النبل والشرف والرفعة في النفوس التي لا تتيح لها
بيئتها وحالتها المعاشية أن تعرف تلك الصفات إلا الدين ؛ فهو يرفع بعزة
الإيمان بالله وآدابه كثيراً من الوضعاء فوق مصاف نفوس الشرفاء والسادة
بالنشأة . ويعلم كثيراً من الجهلاء ويجعل عقولهم تحتك دائماً بالمسائل الكبرى
في الحياة والاجتماع ، ويورث النفوس عموماً تطلعاً للأجناد وأشرف الأمور
وحمل أمانات الحياة بكفاية وشعور بالمسؤولية ، ويبغضها في سفسافها وحقيرها .
ومن الآثار الكبرى للدين تدريره الفكر على أن يعطى لكل شيء
قيمة ، ويجعل التماس الأسباب أساساً لاتجاهات الحياة وتعليلات شئونها .
وأرى الرجل اللاديني لا أمانة له لأن الكون كله في نظره لا قيمة له .

ويخطيء من يظن أن الحياة النفسية للفرد ، والاجتماعية للأمة يستطيع
قيامها بدون هذا العامل الأساسي الذي قامت عليه الحضارات النفسية والمادية
الناجحة . فليقتصر من يريد سلخ الناس عن فطرة الله التي فطر النفوس عليها ؛
فغاية سعيه ضلال ، وجهوده هباء ، ويأبى الله إلا أن يتم بوره ، وقد خلق
البشرية لاجتماع هذا النور حتى يتبين لهم أنه الحق .

وهذا العصر زاخر بالدعوات إلى أفكار واتجاهات مختلفة وقد
تكسرت عن أغلب الناس عقائدهم الموروثة ، واستقبلوا عهداً من الحرية
الفكرية التي تتناول كل المسائل بالتفكير ومقدار المصلحة ، وإن ينجح في هذا
العصر في الدعاية لمذهبه الفكري والمادى إلا من تسليح بالحجة والبرهان وقلل
الاعتماد على الطاقة العاطفية التي تعتمد عليها أغلب الأديان في الدعوة إلى

الإيمان المستسلم الذى يستثار بالموثرات الشعرية الوجدانية . أما فى الإسلام فالطاقة فى الإيمان عقلية فى أكثر أحوالها تعتمد على الرشد والنقد والمحكمة . وقد أمدّها هذا العصر العلمى الأخير بمدد لا ينفى من الحجج والبراهين ، وأيدها روح الشك الذى يأبى أن يغفل الفكر فى كل شأن . فاندخل الكون والدين بالفكر الرائد الناقد . . . ولنبدأ على هداة حياتنا من جديد !

العقل الإسلامي والمسألة الدينية

وأريدُ به ذلك العقلَ الذي أثرت فيه الأفكار والعقائد والأخلاق التي في أصول الإسلام ، وواجه النفسَ والحياة والاجتماع والطبيعة وما وراء الطبيعة بتلك الأفكار والعقائد والأخلاق .

واجهة الطبيعة بتلك الفكرة الواضحة عنها ، وهي ابتدائها على يد الإله الواحد بإرادته وعلمه وتديره وإحكامه ، وسيرها برعايته وتسديده ، وانتهائها على يده ، وإعادة تها في صورة أخرى بمشيئته وتديره .

وواجه ما وراء الطبيعة بذلك التفكير الواقف عند حدود الطبيعة ، المؤمن بأن وراءها عوالم وأكوانا لو رزق الإنسان قوى مدركة أخرى لأدركها ، وبأن إله الطبيعة وما وراءها إله واحد .

وواجه الاجتماع بذلك الخلق انوصى عليه ، الحارس اليقظ القائم على مصلحته ، المتفاني في خدمته ، المجاهد في سبيل إعلائه ورفق شئونه ، المدافع عن حرّماته وحقوقه وواجباته بدمه وماله وفكره وعلمه ، العفيف عن دنياه وتقائمه ، الصابر على بلواه ومحنه !

وواجه النفس بتلك السيطرة التي تحملها على الصفاء والنقاء ، وتجنبها الفجور والشبور ، وتصلها بأعماق الخير وأبواب الحق ، وتحملها على الاستجابة لجمال الحياة والإعراض عن قبحها .

فأين هو ذلك العقل العزيز الكريم ! هل بقي منه إلا ظور وأشكال

جافة كما يبقى الخطب من الربيع ! لقد ذهب التعليم والتهذيب الإسلامى القديم الذى كان يعرف به أكثر المتعلمين الأقدمين أصول الإسلام وغاياته واتجاهاته ، وحل محله هذا التعليم الفج الذى لم يتعرف إلى الإسلام ليجعله على الأقل جدولاً من جداول المعرفة التى تصب في أذهان المتعلمين ، ولم يتوجه بعقولهم إلى مشعاليه ليروا الحياة وما وراءها على ضوءه . . .

وقد ضمنى وبعض الأصدقاء المثقفين ثقافة عالية ، الذين لم يدرسوا عقائد الإسلام ، مجلس ، وكان محور الحديث المسألة الدينية ، فوجدتهم يناقشون في « التوحيد » ولا يمنع بعضهم التعدد ! . . . ووجدت بعضهم لا يرى للإسلام ميزة يتفرد بها بين سائر الأديان حتى الوثنية منها . . . ووجدت بعضهم يسوى بين المتدينين جميعاً موحدين ومشركين ووثنيين ويجعلهم جميعاً قبيلًا واحدًا . . . ولهؤلاء عذرهم ، برغم النكبات التى حلت وتحل بهم وبأمتهم من هذا الجهل والخلط . . . لأن وزارات المعارف الإسلامية — وخصوصاً فى مصر — التى تشرف على تربية أكثر الناشئين فى البلاد الإسلامية لا ترى من الإسلام إلا الرسوم والأشكال تحشرها فى مناهجها حشراً ، أو تلحقها بها ذيلًا غير كريم المظهر ، ولا أصيل الخبر . . . أما « نقطة البدء » فى الإسلام وعقدة ثمرته ، وصورة عقائده التى أشرنا إليها فى أول المقال ؛ تلك التى تركز جهاد رسول الإسلام فى توطيدها فى عقول الناس واحتمل من أجلها أشد الأذى ، وتدور على محاورها آيات القرآن ، فتلك مسألة تافهة لا تستحق الإكباب عليها والإلحاح فيها . . .

ونتيجة لما تقدم قد استسلم أكثر المتعلمين العصريين إلى التفكير فى الحياة الدنيا وحدها ، أو بالأحرى التفكير فى شئون محيطهم الضيق منها ، وصاروا

لا يجرءون على رفع رؤوسهم للتفكير في المسألة الدينية ، لأنهم لا يجدون في ثقافتهم لمشكلاتها حلاً يطمئنون إليه . . .

وقد قال لى بعضهم في ذلك المجلس : إنه يعتقد ألا داعى للتفكير الآن في تلك المسائل الدينية القديمة ، لأنها لا تتصل بهذه الحياة ، ولأن العقل لا يصل إلى تمييز الحق والباطل منها ، وإن الواجب في حالة التدين أن يؤخذ الدين بدون تفكير . . .

وأعظم ما أصيب به الدين أن صارت الفكرة العامة عنه على هذا النحو ! وأن قيمته في بعض الأذهان انحطت عن قيمة أى شأن مادي ، كأن البشر يستطيعون أن يستغنوا عنه ، أو كأن شأنه أهون من شئون المعارف الأخرى والتجارة والزراعة والملاهى وما إليها من شئون العيش المادى التى يملأ الناس بها بيوتهم ومعاهدهم وصحفهم ونواذيرهم . . .

إن التفكير الدينى يجب أن يكون السابق لأى تفكير آخر ، لأنه هدى الطريق ، ومسائله لا يفاق فكره وقلبه عنها إلا كل سفیه مبذر في قيم الأشياء ، لا يدرك قيمة ما فى السماء والأرض من الأخبار والأسرار والمعبر ولا ما فى قدومنا إلى الدنيا وخروجنا منها بدون اختيار من دواعى دهشة وحيرة هما باب التعبد^(١) !

لقد كانت الإنسانية القديمة أصدق من الحديث إحساساً ، وأحى شعوراً وأدنى إلى تقدير الأسرار ، وأشد استجابة للحياة حين شغلتها المسألة الدينية في جميع مواقفها وجعلتها تنشئ جميع شئونها المادية ومعها شعورها الدينى ،

(١) انظر سر الدهشة والحيرة والتعجب فى [أومن بالإنسان | فصل [الباقي من صانع الحضارات القانى | .

وجعلتها تملأ الأرض معابد لإرضاء ولوع النفس بالتفكير في تلك المسألة ،
ولإخضاع أغلب مسائل الحياة الدنيا للنظرة الدينية ، والصدور في جميع الشئون
عن وحيها وسيطرتها . . .

أجل ! كانوا أصدق إحساساً بهذه الحياة حين جعلوا نصيبها موفوراً من
تفكيرهم لما قبلها ولما بعدها ؛ إذ أن الذي يرى هذا العجب في الدنيا وشئونها
لا يملك حبس تفكيره عن الذي كان أمامها والذي يكون وراءها . . .
وإن الذي يقدر هذه الحياة قدرها لا يملك أن يسمح لفكره أن يقول بفنائها
هو فناء لا رجعة بعده ، أو فنائها هي فناء لا رجعة بعده .

وإني لأعجب كيف يبدأ أكثر المتعلمين صباحهم وكيف يختمون مساءهم
وهم في غفلة عن التفكير في مسائل هذا الوجود وفي حياتهم ومماتهم ! .
وإني لأعجب كذلك كيف يسمح بعض المتعلمين لنفسه أن ينظر إلى
آباء الإنسانية من الأنبياء والأصفياء ، الذين وجدت في موارثهم وجهادهم
أعظم عزاء وأعظم عروة وثقى أمسكت وتمسك بها في تيارات الجهول ، نظرة
ازدراء وتحقير . . . ثم ينظرون إلى أى صانع أرضاهم صنعه المادى في شئ ،
صغير نظرة إعجاب ! ! !

وكان الإنسان القديم أشد شعوراً بنفسه ، وذوقاً روحياً لما حولها ،
وتقديراً لما خلقها حين علم أنها محاطة بتلك العناية الفائقة وسط أهوال الحياة ،
وكان ظنه برب الكون يسمو إلى درجة الصداقة والحب والرهبة والاعتماد
في شئونه على معونته .

وجميع شئون الناس المادية مطردة السير ، وموقفهم من جميع الشئون الآن
معقول إلا في المسألة الدينية . . . فقد أهملوها إهمالاً لست أعلم له سبباً مقبولاً ،

إلا أن يكون هناك قوة شريرة خفية ، تصرفهم وتشغلهم عنها ، هي ما يسميه الدين (الشيطان) ، وإلا فإذا يجعل عبّاد الحياة القانين في عشقها يهملون الاعتقاد بأنهم سيحيون حياة أخرى تمتد بها آمالهم في السعادة ؟ ! . وما الذي يجعل عشاق الجمال والحق لا يرضون نزعات حبهم للجمال والحق فيلجأوا إلى الإيمان بما يقول الدين من أن هناك في حياة أخرى عقاباً صارماً للذين يعتدون على الجمال والحق في هذه الحياة الدنيا ؟ . وما الذي يصرف محبّي العدالة عن الأخذ بأعظم أسباب إقرار العدالة ، وهو توطيد عقيدة في القلوب تحتم الأخذ بأسباب العدالة ؟ ! . .

أغلب الناس يألم من الشر ؛ ولكن ما بالهم يفرون من الانتظام في جيش أعظم قوة تقاوم أسباب الشر والإثم والألم وتحققها ؟ ما بالهم لا يقيمون حياتهم على ما يضمن راحتهم فيها ؟ . هل لذلك من علة سوى قوة الشر التي يجسمها الدين ويسمّيها الشيطان ؟ .

يقولون إنها غرائز الشر ، وهي قوة من قوى النفس ، فالصدور عنها والطاعة لها لا ضير فيهما ، لأنهما استجابة^(١) لبعض القوى الطبيعية في النفس . . . وفي هذا القول أول دفع إلى الإيحاء بالشر وجعل اقترافه فلسفة . . . وسواء كان الشر من قوى النفس أم قوة خارجة عنها ، فالعبرة بالنتيجة لا البواعث . غير أن الدين كان أحذق وأعرف بمدخل النفس وبواعث قوى الخير فيها وإثارتها إلى الكفاح ، وأقرب إلى تنزيهها حين جسّم لها قوة الشر وجعلها قوة مدرّكة وعدوّاً غريباً عنها ، وخلع اسماً على شخصيتها المستقلة التي يكاد يراها قلب الإنسان ويحس يدها تغمز عليه وتفسد اتجاهه للخير . . .

(١) وهذا من مقالات المذهب الهدام الجديد المدعو [الوجودية] .

ودأبما يقف هذا « الشيطان » موقفاً مقابلاً لموقف الخير والطاعة والسير مع
قوانين حفظ الحياة وإطراد نموّها وارتقاءها في الطبيعة وفي الاجتماع ، فحين
كانت طبيعة الحياة الإنسانية في « آدم » هي اللبنة على الخلود والاستمرار
في حياة « الجنة » التي لا ظمأ فيها ولا جوع ولا غرئ ولا شقاء ، رَيْنَ
« الشيطان » لها مخالفة قوانين الحياة في تلك الجنة سعياً وراء الخلود . . .
« فَوَسَّوسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ
لَا يَبْلَى » وأوقعه في الإثم ليخرجه منها .

وحين صارت لفئة بعض النفوس البشرية الآئمة الجاحدة الظالمة أن
تفعل ما تشاء وأن تحظى بمشتهياتها وترضى نوازع الإثم والشرف فيها ثم تقضى
فناء لارجعة بعده ، فراراً من الحساب والعقاب ، وسوس لها بالفناء المطلق ليمنعها
من العودة إلى الجنة . . . وليمهد لها سبيل الشر على حساب العدم الأبدى
بعده هذه الحياة . . .

السعي الآثم إلى الخلود المطلق هو ما وسوس به الشيطان لآدم حين كان
يتعلق بأسباب البقاء في الجنة ليخرجه منها . . . والظن الآثم في الفناء المطلق
هو ما وسوس به الشيطان لآدم حين أخرج من الجنة على ميعاد للعودة إليها ،
ليحول بينه وبين العودة إليها .

فهل من طبيعة كائن كريم عاقل هذا التناقض ؟ ! أم أنها مكيدة عدو
غريب عن النفس البشرية حاقد شديد الفتنة ، ضارى الفطنة !

الذى ضيّع الدين

ما رأيت شيئاً أضر الحياة وأضر الدين وحال دون شيوعه فى الناس مثل فهمه على أنه ليس ركنًا بسيطاً هيناً من أركان الحياة اليومية ، بل شيئاً بعيداً عن متناول عقول أكثر الناس ومتناول جهدهم المحدود وإحساسهم بالحياة ، لا يصل إليه إلا الموهوبون المنقطعون عن الحياة المادية ...

وينبغى لدعاة الدين وقواد الاجتماع ألا يخطوا خطوة عامة فى رحاب الفكر الاجتماعى إلا وهم مقدرون أن جمهور الإنسانية يستطيع أن يخطوها وراءهم . وقد كانت نتيجة هذا الفهم وذلك الإيغال أن حياة أكثر الناس انفصلت عن حياة الدين واتجهت إلى مجرى المادية الصماء — وهو المجرى الظاهرى وحده — من غير أن يصحبها الروح السامى الذى يليق بعظمة تفرعاتها المادية وتشقيقاتها .

ولو أن الدين نظر إليه وفهم على أنه موقف طبيعى لازم من « روتين » الحياة اليومية . كالأكل والنوم والرياضة والعلم ، ولو أنه سائر حياة المجتمع ، وفهم على أنه « ركن مادى » فيها لا بد أن تقوم عليه كما تقوم على غيره من دعائمه كالتقانون وحفظ الأمن مثلاً ، ولم تلتصق به نزعات التصوف والانطلاق الشعرى المعْرِقَيْن ، وتصوير الإنسان فيه فى موقف الإفناء والإنكار للنزعات المادية التى تستلزمها الحياة بالجسد ، والخروج من الدنيا بالسهر والجوع والزهد واستمرار الآلام قبل الخروج منها بالموت . . . إذا لسارت الحياة الإنسانية فى تناسق بين جانبيها الروحى والمادى .

وليس الزهد في الحقيقة ترك الطيبات ؛ وإنما هو التفطن إلى طعم ذواها وفنائها أثناء الاستمتاع بها لمنع الاغترار والركون إليها .

ولو علمنا أن الحياة صادقة أصدق من تلك النزعات الشاذة التي تجلت في أفراد من المتشائمين ، من كل من طلق الدنيا المأً منها أو فطاما للنفس عن لذاتها الطيبة ، لتغير الموقف العام ، فإن الحياة الإنسانية في مجراها العام أخذت الإنسانية كلها ، ونقلتها إلى رحاب الكرامات والتسلط والتسخير عن طريق العلوم الموضوعية ومكارم الأخلاق العملية لا الاستغراقات الذاتية الضيقة المعرضة عن الحياة ..

ولا يفرّتنا من شذوذ أولئك الصوفيين المغرقين ما تركوه من كلام شعري مزوق جميل في طيوف وأشباح وأصداء لوجداناتهم المحرومة الموهلة التي تركت طرق الحياة الواضحة ، وأرادت أن تدرك الله الأعلى بعقولها المحدودة ، فكانت النتيجة الحتمية لذلك المطلب هي بلبلة الخاطر وخفاء البيان واضطراب التفكير . . .

إن الحياة المادية العلمية الظاهرة هي الحكم في حياة الجماعة ، وهي الأفق الأول الذي أراد الله العظيم أن تتجلى فيه أسرارنا ونتائج خلقتنا ، وثمرات جهادنا فيها ثمرات دائمة ثابتة ، يراها أطفالنا وحيالنا كما يراها علماءنا وفلاسفتنا .

وأنا مؤمن بالإنسانية ذات المنطق العملي المستمد من الطبيعة ، ناشد كلها عن طريق تكميل سيطرتها على الطبيعة وإدراكها للنفس إدراكاً علمياً وتحكمها في العمل تحكماً صالحاً .

ومن الذي سار وراء الشذاذ من الصوفية والمتشائمين وأخذ أخذهم في الحياة ؟ إنهم أقل عدد ، ومن صالح الأرض أن يكون ذلك ، إذ لو طاعوهم

الناس اعطلت الحياة في الأرض ، ولم تتحقق الأعمال البارة التي للإنسان في المادة وأسرارها .

والتصوف بمعناه العملي شيء سام عظيم في رياضة الخلق وتطبيع الأعصاب على السمو والخير وإيقاظ الضمير ، ولكنه بمعناه الشعري الذي نراه في شعر بعض القوم ليس أخلاقاً ، وإنما هو أحلام وتأملات مستغرقة حادة للخلاص من الجسد لرؤية الحقيقة العظمى والخروج من نطاق الأرض لرؤية ما وراءها ، وهؤلاء قد لا يهتمون بالأعمال والأخلاق ، كالحلاج وغيره ؛ فواجب أن ننظر إليهم لا كرجال دين يسنون طرقاً ليسير الناس عليها ، وإنما كشعراء استهوتهم المعاني الدينية فأسرفوا فيها ، واستغرقوا وانطلق وجدانهم فيها كما استغرق أبو نواس في الخمر وبشار في المذات الحسية . . .

وقد يُنظر إلى معانيهم على أنها انطلاقات في « فن الدين » أو موسيقى في جوه ليست ذات محصول . . . وقد ينظر إليهم رجل الدين العالم العملي على أنهم صنّاع أحلام استهوتهم إلى غير الطريق الذي تسير فيه الجماعة . وكل فتح لهم تستطيع الإنسانية أن تنفع به هو « صواب الأحكام » التي أرسلوها فيما أترعهم من بيان ؛ لأنهم أطلوا التأمل وأدمنوا تقليب النظر في وجوه الأشياء المختلفة . وهذا لا يُيسّر لكثير غيرهم .

ولم يأت وصف لله تعالى على لسانهم ولسان أي مخلوق بما يخرج عن نطاق عمله تعالى وصفاته الممثلة في الطبيعة التي تدرك بالقوى الواعية وبالحواس . نعم قد تشرق عليهم لمعات من الأدواق الغريبة عن الحياة ومن المشاهد

الغيبية ، ولكن لا يستطيعون إظهارها ، لأنها يضيق عنها نطاق النطق كما يترر الغزالي .

وإني ما قرأت بيان صوفي إلا وجدته خيالا شعريا جميلا ، إن كان صاحبه قديراً ، ورديثاً إن كان صاحبه قاصراً . قليل الذهن ، وكثيراً ما أظفر بمنزله من بيان أهل الدنيا السائرين على ظاهرها .

غير أن الإنسانية إن كانت طبيعية إلى حد ما بسيرها هكذا ، فقد أساءت بإهمال جانب الروح ، باعتباره دعامة أساسية في الحياة ، ذلك الإهمال الشنيع .

وربما يكون ذلك الأمر محتملاً في العصور السالفة ، عصور القصور والطفولة ، ولكن الآن يجب أن تدرك أنها بلغت دوراً لا يصح أن تسكت فيه على إهمال الجانب الروحي في حياتها باعتبار أنه « ركن حيوى » ودعامة نظامية لحياتها المادية ذاتها . والحمد لله قد تحول كثير من أحلام الروحيين القدماء إلى أخلاق عملية عامة .

وتظهر قيمة القرآن العظيم حين يأخذ المجتمع كله بمنطق وسط صالح للجماعات ، فهو كتاب العدل بين قوى الإنسان ، والاعتراف بالحياة المادية والحياة الروحية كأساس واحد لازم للحياة الإنسانية .

والعمل هو رُوحه ، لا الأمانى الشعرية ، ولا الأغاني الدينية ولا التماس « حسن التعليل » ولا الأماديج التي تتملق ويتهرب بها صاحبها أو يتشفع بها

ويعتذر عن إهمال الأعمال ، كتلك المعاذير التي يتخذها الناس مع رؤسائهم
الدينويين .

والتواب والجنة الحسية والحسنى والرضا والرحمة والاحترام والخير لذى الخير
هى من أدواته كذلك فى الدعوة ومجازاة الفضائل والطبائع السكرينة ، لأنها
منطق الغرائز الصالحة والأخلاق المثلى . وكل أخلاق القرآن هى أخلاق أبناء
الحياة بقسميها : العاجل والآجل ، الصالحين لعارة الأولى ونموها ، والعاملين
لحيازة الأخرى والرفعة والرفاهة الخالصة فيها .

وكل عقائد القرآن واضحة مأخوذة من منطق الانفصال بين الله والطبيعة
وبين الإنسان والله تعالى — فلا حلول ولا وحدة ولا اتحاد — ، ومن موقف
الخلافة فى الأرض خلافة واسعة والتدخل فى شئونها جميعاً ، لا التقليل من
شأنها والهرب من مجابهة فتنها كدار امتحان وكفاح وابتلاء : موقف
الاعتراف بقيمة الجسد الإنسانى وسمو الروح الإنسانى ووجوب الجمع بينهما
لصالح الحياة والفكر .

فلندين الله بالحياة ، ولنعبدها هى ذاتها ، ولنأخذ منطقنا من سننها التى
لا تبدل وحقائقها التى لا تلتوى ، لأنها منطق الله ربنا وربها ، وما عرفنا الله
إلا منها . فكيف نهملها ؟ وكيف نهملها أو نهمل عليها ؟ فيها قوامها ،
ومنها دينها ! .

ولنعرض أقوال الرجال على موازينها قبل الأخذ بها فى تسليم وغرور . . .
ولنحذر أن نعكس الأمر فنعرض أمر موازينها على أقوال الرجال ، فإن أقوال
الرجال متغيرة متناقضة وأقوالها هى ثابتة لا تبدل ! .

ولكل عقل موهوب الحق في الاتصال بها، والاحتكاك بقوانينها؛
ليكون من وراء ذلك اتصال مباشر بعقل الوجود ! . . .

وقد صارت الحياة تغزو بصدقها قلب الإنسان وتستهيويه وتبعده عن
الخوف والوجل من القرب منها، وجعلت أبناءها المجاهدين الشجعان هم السادة،
وتركت الفارين منها في خوف ووجل يثنون تحت أثقالها وهم يحسبون
أن أنينهم هذا شعر ونشيد وحكمة ! . . . وما ظفر فيها بالحق إلا من أحس بها
واقترب إليها وبعّد عن أساطير الأولين من المرضى والفرارين الذين حرموا
من الإحساس بعنفوان شبابها يفيض في كيانهم . . .

تطوّر واجب في فهم الدين

من الخطأ في هذا العصر أن نجعل محور الحديث الديني هو المحور التقليدي السابق الذي يدور العقل به حول الصورة القديمة للكون في عقول القدماء تاركين النظر إلى الوضع الجديد لهذا الكائن الإنساني الذي ابتدأت قدرته وعلمه يحلان محل آلهة الخرافة عند القدماء .

فلقد كان منطق العجز والألم والجهل هو الذي يسيطر على عقول أكثر الإنسانية إلى ما قبل هذا القرن ، بل إلى ما قبل الربع الثاني منه ، وكان هذا المنطق يوحى بالتشاؤم والنظرة السوداء إلى الحياة والسخط على ما فيها من سدود وقيود ؛ وكان الدين حينذاك بلسما يبرد الجراح ، وعزاء يخفف وقع الآلام ، وطوق نجاة تتعلق به الأرواح الغريقة لتصل إلى شط الطمأنينة والسكينة لحظات لا تلبث أن تأخذها بعدها الحوادث اليومية إلى اللجة فتضرب فيها بأ كفها الصغيرة الهزيلة .

أما الآن فيجب أن يكون منطق القدرة والعلم والراحة التي جلبها العلم هو الذي يسيطر على عقول الإنسانية ويوجهها إلى الله وإلى الخير ، ويوجهها إلى التأمل العميق في هذه القدرة والعلم اللذين صارت تتصرف بهما في حياتها ، وإلى التأمل أيضاً في هذا الوضع الحر الذي تتمتع به بين الكائنات المقيدة ، والدورات الأبدية المكررة .

وإني أكرر — ولا بأس أن أكرر مادامت في صدد بسط دعوة —

أن الإنسان صار له من القيمة والاعتبار ما يوجب عليه أن يفكر في نفسه ووضعه بعد أن صار عاملاً عظيماً من عوامل التكوين والتخريب في الكون المادى .

وإذا كنا لم نعرف الله رب الكون ونؤمن به إلا عن طريق ما نراه من مخلوقاته وما فيها من إبداع وتنوع وتفريع ، وإذا كان القرآن الكريم ، وهو أعظم بيان ديني عن الله ، لم يأت بأى صفة له تعالى إلا وهى منتزعة من فعله سبحانه فى هذا الكون ، إننا حينئذ لابد لنا من الاستئناس بهذا فى الاستدلال على ما للإنسان من قيمة خطيرة فى الأرض وفى الكون المادى كله بعد أن صار عاملاً عظيماً من عوامل التكوين والتخريب والتنوع والتفريع فى عالم المادة والحركة والسرعة والاتصال رغم الأبعاد والمسافات .

وفى رأى أن أعمال الإنسان الآن إنما هى تفسير لما آمننا به عن صفات الله وأعماله : فقد كانت عقول أكثرتنا القاصرة لاتفهم أن أمور الله فى التكوين والتخريب والعلم والاتصال بمخلوقاته إنما هى قوله للشئ : « كن » فيكون . . وقد كانت عقول قدمائنا حتى عقول بعض الأنبياء لاتدرك عمل الله سبحانه فى التكوين والإحياء وتنوهمه سبحانه خاضعاً فى عمله للوسائط والأدوات والكيفيات المادية ، فكان بعضهم يسأله : « رَبِّ ارِنِي كَيْفَ تَحْيِي الْمَوْتَى » ، « أُنِّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً » ، « أُنِّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ » . وهكذا كانت عقول البشرية لاتدرك أن الله الذى خلق هذا العجب الذى نراه من لاشئ ، لايحوز أن يكون مقيداً بقوانينه التى هو واضعها ، وأنه لاشك يستطيع أن يخلق عجباً غيرها إذا أراد تغيير سننه فى نشأة أخرى ،

وأنه إن خرقها في حادثة جزئية فذلك استثناء يشير إلى القاعدة وينبه الأذهان إليها من تحذير الألفة والاعتیاد والذهول .

فلما وصلنا إلى درجة من العلم والقدرة تتيح لنا أن نقول لكثير من الأشياء « كوني » فتكون بسرعة البرق واللاسلكى والكهرباء بعد أن نهى لها قوانينها وتتخذ لأبوابها مفاتيحها ، فلا يجوز حينئذ أن يخفى علينا تفسير قول الله : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » إذ أننا على عجزنا وضآلتنا ومحدوديتنا استطعنا أن يضيء الطفل منا مدينة بضغط أصبعه على مفتاح كهرباء فيُطلع فيها شمساً ، وأن يجرى أنهاراً من الماء في بيته بفتح صنبور ماء ، وأن يتصل بمن يريد وبما يريد فيراه ويسمعه ويسمع أنفاسه ويرى حركاته من أقصى الأرض بالتلفزيون والتليفون والراديو والرادار ، وينسف مدينة عظيمة بقنبلة ذرية كالبيضة أو كالقولة ، وأن يحارب أعداءه بالطائرات والدبابات التى تسير باللاسلكى فيجعلها تكرر وتفر وتقبل وتدير في ميادين الحرب ، وهو عنها بعيد بمئات الأميال ، فما بالنا بالخالق البادى والمبدع المنشئ مخلوقاته من لا شيء ؟ !

وفى أكثر العقول الدينية استغراق واستدراج خاطيء في فهم الدين وفقه القيام بأعماله .

إنهم حين يعيشون ساعة الوجدان الدينى ينسحبون من الحياة ومنطقها وينسلخون أو يودون أن ينسلخوا من بشريتهم العملية ، ويحسبون حينئذ أن أعمالهم الدينية ليست للحياة الدنيا وإنما لأمر أخرى خارجة عن نطاق الدنيا .

فهم يشهدون بالله الواحد ، لا كفكرين ارتضوا الإلهية والتوحيد مذهباً
فكرياً قبل ارتضائه قضية سماعية موروثية مأخوذة بنجمتها من يد الأم والأب ،
بل كأطفال يحكّون أقوال الأمهات والآباء ، حكاية البيغاوات ، مع أن هذه
الشهادة أعظم وقفة في حياتهم ! لأنها إبرة التوجيه ومفتاح التحويل وبدء
الطريق الفكرية والحيوية .

وحين يصلّون مثلاً لا يشعرون وهم مقبلون على الصلاة أنهم يؤدون عملاً
في صميم الحياة ، إذ يقفون في (طاوور) الصباح والظهر والمساء كما لو كانوا
معروضين قادمين على شكر رئيس في الحياة يحبونه ، لأنه يسدى إليهم هبة
الحياة ونعمها ، وإمّا يصلّون وهم يشعرون أنهم منفصلون عن الحياة في
تكليف خارج عنها ، ولا يتصل بمنطقها . وهم لا يزكّون وهم يشعرون أنهم
يؤدون واجباً مدنياً لإصلاح حياتهم الخاصة والعامة ، إذ يمنعون عنها جرائم
التفاوت الظالم والتقاطع القاسى بين الطبقات ، وإمّا يفعلون ذلك لاحتياز
قصر في الجنة وللبعد عن حفرة في النار وحسب .

وقلّ مثل ذلك في باقى الأفكار والأعمال والرسوم الدينية ، فهى تُفعل
وتزاول كأنها أفعال خارجة عن نطاق خدمة الحياة الدنيا . . ولذلك انفصل
الدين عن الدنيا فى عقول هؤلاء ، وقيل دين وقيل دنيا . . ولا عجب أن
ينفصل ، لأن الدين يلقن قبل دور التمييز والحكم العقلى ، ثم يهمل التفكير فيه
إذا جاء الدور اللائق به ، فما لم يكن للشخص احترام لعقله يحمله على التفكير
فى كل شىء موروث ، تلحقه هذه الجناية .

ألا إن الدين هو أداة صلاح الحياة الدنيا التى نحياها هنا أولاً ، ولن
تصلح الآخرة إلا بصلاح الدنيا ، ولم تكن جنة ونار إلا نتيجة لأعمال الإصلاح
اللائق بتأهيل الناس لسكنى الجنة ، وأعمال الإفساد اللائق بسكنى الثانية .

فابستيقظ المسلمون المغمضو العيون الآخذون أقوال دينهم كأنها أقرال كهانة
وطلاسم سحرة ، تلفظ وتجري على الألسنة في غير وعى ، لا تنتج شيئاً هنا
وإما تنتج هناك فقط !

إن الإسلام دين الطيبة ، ولو لم يكن ديناً موحى به لكان المذهب
العقلى الفلاسفى الوحيد الذى يجب اتباعه وحمل العقل عليه لاحترام النفس ،
والاحتفاء بالحياة العاجلة والاطمئنان إلى المصير السعيد .

وقد مضى زمن الطفولة الذى لم تكن أسرار الدين تُعَلَّم فيه على أنها
أسرار للدنيا . والطفل يقال له قبل التمييز : هذا قبيح ، ومعه العصا ، وهذا
حسن ، ومعه الحلوى ، لأخذه إلى طريق الجماعة كما يؤخذ الحمل الصغير إلى
طريق القطيع بأعواد الكلال الأخضر أو بالعصا ، لأنه فى الواقع حمل صغير
لا يمكن أنه يعلو عقله إلى منطق التعليل وفقه الواجبات والحقوق . وكذلك
كان يقال للإنسانية هكذا ، ويفعل معها هكذا قبل دور الرشد .
أما الآن فرشدها العقلى المجرد يقول لها ما كان يقوله لها آباؤها الأنبياء
المدركون السابقون قبل آلاف السنين .

ومهمة الجماعة فى التريب والتعليم أن تقول لناشئها ما كشفتها من قوانين
حفظ حياتها سليمة كما هدتها التجارب السابقة .

فالدين فى جملة ليس أكثر من سياج للمعروف من أخلاق المجتمع التى
ارتضاها لحفظ حياته ، وطريق عقلى يصل الإنسانية بخالقها ومكرمها الذى
ارتضى لنوعها هذا الطريق العلمى الكريم الذى فتح عليها بركات من السماء
والأرض . وليس الله تعالى كذلك التركى الذى جمع جراراً وتأمر على الناس
فى الشرب منها ، وجلس يقول للظالمين من السابلة الواردين عليه ، ومعه عصا

يشير بها : اشرب من هذه . . وأنت اشرب من تلك . . لغير سبب إلا حب الأمر والنهي . .

إن هذا أسلوب الجائعين للشهرة والسلطة . . وما كان لمالك السموات والأرض وما بينهما أن يقصد ذلك ، وله المثل الأعلى .

وإنما هو يقول : « فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا » .

وأوجب الواجبات في تطور فهم الدين أن نقصى من فكرنا الاعتقاد بأن الحياة دار عذاب بطبيعتها لا بجناياتنا نحن واعتدائنا عليها ، فليس شيء أشد ضرراً بالدين والحياة من هذا الاعتقاد ! .

فإن كان الفرد يريد الحياة السعيدة فليعمل هو لذلك وليضع أسسها : لِيَتْرَكَ أَكْلَ أَخِيهِ كَمَا تَرَكَ أَكْلَ ابْنِهِ . لِيَتَكْفَلَ بِأَبْنَاءِ وَطْنِهِ الْمُحْتَاجِينَ كَمَا يَتَكْفَلَ بِأَبْنَاءِ أَخِيهِ . لِيَشْعُرَ بِالقَرَابَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبْنَاءِ وَطْنِهِ كَمَا يَشْعُرُ بِأَوَاصِرِ القَرَابَةِ فِي الرَّحْمِ وَالْعَصَبِ وَالنَّسَبِ . وَلِيَعْدِلَّ أَسَاسَ تَوْزِيعِ الثَّرْوَةِ بَيْنَ أَبْنَاءِ وَطْنِهِ كَمَا يَعْدِلُّهُ بَيْنَ أَبْنَائِهِ . لِيَشْعُرَ بِالْإِنْسَانِيَةِ الْوَاحِدَةِ وَيَغْضِبَ مُصْلَحَتُهَا كَمَا يَشْعُرُ وَيَغْضِبُ لِلْقَوْمِيَّةِ . وَهَكَذَا فَلْيَتَطَوَّرْ تَطَوُّراً آخِراً فِي فَهْمِ عِلَاقَاتِهِ الاجْتِمَاعِيَّةِ ، لِيُضْمِنَ لِنَفْسِهِ أَنْ يَسْعَدَ بِسَعَادَةِ النَّاسِ كَمَا يَسْعَدُ بِنَفْسِهِ وَذَوِي قَرْبَاهُ .

وأبداً تكون الحياة من يد الله صحيحة سليمة ، وإنما تفسدها يد الإنسان . وكل الشر والسخف ناشئ من سوء فهم قصد الحياة ومن سوء توزيع الثروة . وما عدا ذلك من شرور المرض والآفات الطبيعية فهي أضرار صار في يد العلم

التغلب على كثير منها ، ولا بد من حدوثها في فترات لتنبين أذواق الدنيا
وندرك الضدين الخالدين فيها : الخير والشر .

والمسألة الاقتصادية هي أم الشر إذا حلت ذهب تسعة أعشاره .

والإنسان الذى استطاع ترويض الآساد والنمور والفيلة بالتجويع والسياط
والحيلة ، حتى صارت تلعب فى (السيرك) وأمامها اللحم الشهى من الأطفال
الضعاف ، يستطيع أن يروض أو يقمع أخلاق المفترسين من بنى البشر . .
فبالترية لمن يفهم والسط لمن لا يفهم ، يستطيع المصاحون أن يفعلوا شيئاً عظيماً .
وأم الشمال الاسكندنافية فى الغرب مثل مضرورة لمن يريد أن يفعل
للإنسانية فعلاً يسعدها ويجعلها تطمئن لهذه الحياة بالقدر الذى تسمح به
دار مؤقتة !

obeykandi.com

الإيمانُ بين العقل والوجدان

قد لا يوافق بعض الباحثين على وصف العقل بالإيمان ، ويرون الإيمان لا يكون إلا وصفاً للقلب والوجدان ؛ ، سَيِّراً وراء مقالة شاعت في الغرب والشرق ، وتلقفها المسلمون المحدثون فيما تلقفوا من سِلعٍ وعُرُوض فكرية ومادية بدون نقد وعَرَض على ما عندهم من موارِيث أصيلة ثابتة .

وأحاول بهذا الكتاب ، أن أَرُدَّ الأمر إلى نصابه من الحق ، وأن أبين أن إثبات العقيدة الأساسية ، وهي [الخالق الواحد] لا يعتمد على الطاقة العاطفية الوجدانية في النفس ، وإنما يعتمد على الطاقة العقلية الحاكمة الحاسمة التي تدخل الكون وترتاد عالم النِّسَب بين الأشياء المحسوسة وغير المحسوسة ، وتستمد من قوى التدبر والتذكر والتمييز والرَّبْط — وهي جماع قوى العقل — حكمها على الكون بأنه صنعة يد واحدة ، لم تختلف موازينها في الذَّرَّة الصغيرة التي هي وحدة بناء الكون المادي ، ولا في الجُرَّة الكبيرة التي هي من وحداته الكبرى الهائلة .

والإنسان الذي قد شبَّ في مجموعته عن الطوق في هذا العصر ، ووجد في نفسه القدرة على تسخير كثير من قوى الطبيعة لم يعد يقنعه الإيمان المستسلم بدون تفكير يثبت له أساس عقيدته على الأقل ، وهو الذي صار الفكر سلاحه المحرَّب في غزو القوى المادية والتمهيد لحياته المعاشية ، ولذلك أفلت من الأديان التي تريد منه أن يدخل رحابها مغمض العينين ، واضعاً قيودها في يديه ، وغمائها على عقله ، وهو مستسلم عاجز عن التعليل والارتكاز على ركائز ثابتة

تعصمه من موجات الشُّبُه والفروض التى تتلاطم بها لجج الحياة ويقذف الناس بها من كل جانب فى رحلتهم الطويلة على هذه الأرض .

وكلَّ يوم يصغرُ حجم الكون وتقترب أبعاده أمام رؤية الفكر البشرى الذى يبحث فى كل شىء ، ولا يقنع دون تحطيم أقفال كل سر . . فليس من المعقول أن يظل واقفاً أمام السر الأكبر لصنعة الكون مغمض العينين طامس البصيرة ، يقنع أن يأخذ عقيدته فيها من المستسلمين العاجزين المختلفين المبتغين فى تصور الصانع وصفاته ، إذ أنهم لم يعتمدوا فى تصورهم لصفاته على هذا الكون الذى تأخذهم طلعتة العظيمة الموزونة من كل جانب ، ويوحى إليهم تناسقه وانسجامه أنه مصنوع بيد واحدة ومَسُوق بعصا راعٍ واحد ، وإنما اعتمدوا على أقوال الكهانات ذات الطقولة المحدودة والتصور القاصر عن رؤية أبعاد الكون وإدراك الصفات التى تليق بصانعه . .

ولئن كان الهادى إلى إيمان القدماء فى عصور القصور والعجز هو الرسل والكتب ذات الوصايا المختلفة ، فإن إيمان الحديثين ينبغى أن يكون هاديه هو كتاب الكون الأكبر الذى نطقت سطورته وتكلم نوره .

ومن حُسن حظ المسلمين أن قرآنهم جاء ترجمة ناطقة بليغة مبكرة لكتاب الكون . . وكان من أعظم أسرار إعجازه أنه تفرد بين كتب الأديان جميعاً بهذه الميزة الكبرى التى أسرع بال عقل البشرى إلى غاياته من حل رموز الكون واستطلاع أسرارهِ ، والاهتداء بها إلى خالقها ، والتعبد له عبادة الفكر العالم الذى رأى الكون كله معبداً ومحراب صلاة دائمة يردد فيها شهادته مع الله تعالى والملائكة الأعلى : أنه لا إله إلا هو قائماً بالقسط ! .

وكما قلت وأكرر دائماً : لو لم يكن القرآن كتاباً مُوحى به لكان أعظم مذهب عقلى طبيعى أخذ الفكر البشرى إلى أقرب طريق فى التفكير الحر الذى يتلقى آراءه من الطبيعة مباشرة ، ويفر إليه كل من أبى الخضوع والاستسلام

لمنطق الكهان المحترفين الذين لم يدركوا بعقوتهم جوهر الدين والفكرة الأصلية فيه ؛ لأنهم لم يتحوا كموا إلى كتاب الكون الأكبر ، وإنما أخذوا الإيمان وأعطوه بالوجدان المستسلم والمشاعر الغامضة التي يرعوها « الجهول » فتخشى وتحاف وتتعبد عبادة الرهبة والعجز ، لآعبادة أولى العلم الراسخين فيه ، الواصلين في إدراك الحياة إلى قرار مكين .

والمسلمون الأولون قد تلقوا العقائد الإسلامية بالفكر والعلم والتدبر والتذكر والتمييز والحكم استجابة لدعوة القرآن لهم وإهابته بهم أن يأخذوها بقوة عن هذه الطرق التي لا سبيل سواها لِيَتَلَقَّ عزائمها وجلالها ؛ ولذلك كان الواحد منهم ما يلبث أن يفقهها ويدرك ماوراءها من تبعات الفكر والعلم حتى ينفض ماني رأسه وقلبه من خرافات وأوهام ومناقضات لها ، ولم يكونوا يشعرون أنهم في خطر من الفلسفات والآراء اليونانية وغيرها بل كان جميع فلاسفتهم ومفكريهم الذين اتصلوا بالدراسات المختلفة الغربية عنهم لا يجدون فيما يخالف العقيدة الإسلامية شيئا يقوم مقامها في الرسوخ والوضوح وسكون النفس وطمانينتها إليها ، وقد سخروا ثقافتهم الأجنبية كلها في خدمتها وتأييدها ، لا كما حدث بعد ذلك في العصور الأخيرة بعد أن خوت عقول المسلمين من فلسفة دينهم وأسرار عقائدهم وأحكامه وتشريعاته ، واحتلت الثقافات الأجنبية عقولهم فصادفت فراغاتهم الأعماق ! وتمكنت حتى أنتجت نتائجها الطبيعية المحتومة ، من فسولة التفكير ، وتفاهة التدليل ، والضياع والاضطراب بين المذاهب والآراء ، والتظرف بالإلحاد ، وانتحال التحضر ، وادعاء حرية الرأي ، مع تقليد القروود والبيغاوات .

وما لم تؤخذ عقائد القرآن بجميع قوى الوعي والفكر ، ثم تنزل منازلها الكريمة بعد ذلك من الوجدان والمشاعر والضمائر لتأخذ منها الحرارة وقوى الدفع إلى الأعمال ، فإن المسلمين إلى بلبلة واضطراب فكري لا محالة .

حُبُّ الْقَائِمِ الْيَكُونُ

المدخل إلى الإيمان به

وتحليل العملية العقلية في ذلك الإيمان

لا قيمة لاعتقاد النفس بشيء قبل أن تكتمل لها أدوات التفكير والتمييز ، وكل ما اعتقدته قبل دور اكتمال تلك الأدوات ينبغي لها أن تعيد النظر والفكر فيه وتقلبه على وجوهه المختلفة من جديد لتختار منه ما يصلح لدور الرجولة والرشد وتطرح ما عداه .

وكل دعوة دينية صحيحة ، قد جاء بها كل نبي قومه وهو وهم في دور الرجولة ، ولذلك كان يشور الجدال وتتلاقى حجج الرشد وحجج النقي ، فتهاافت وتسقط حجج النقي حينما تعرض على الموازين الفكرية الدقيقة الحساسة ، وتستجيب القلوب السليمة لدعوة النبي بعد الافتتاح الفكري .

وقد جاء القرآن دين رشد ورجولة ، لا دين طفولة ، ولذلك كانت دعاويه مكتملة الحجج العقلية معتمدة على منطق الرشد وحده ، لا على الخوارق والمعجزات ، المادية التي تلزم الناس بدون تحليل فكري .

« وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ . قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا » . « وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »

ومسائل الدين لا يمكن حمل النفوس على الإيمان بها بمعجزات وخوارق
وقنية ، لأنها مادامت لم تؤمن بالمعجزات الدائمة التي تملأ الكون كله
ففيهات أن تؤمن بشيء خارق ووقتى ، وإنما يمكن حمل النفوس على الدين
بالتذكير ودعوة الفكر إلى التدبر والتحاكم إلى الفطرة والبداهة التي تستند
في وجودها كله إلى حقيقة « السببية » وتستخدمها في إنشاء الأشياء وتعليل
الأفعال ولا تسير في حياتها كلها إلا على هداها . .

وحقيقة « السببية » الفطرية هذه ، هي المدخل إلى اثبات القضية الدينية
الأساسية وهي الإيمان « بخالق الكون » وقد رأيت من الواجب تحليل
العملية العقلية في إدراكها وبيان مستقرها العقلى : —

ليست هي قضية « وجدانية » تأخذ من المجهول للنفس أكثر مما تأخذ من
المعلوم لها ، بل هي في أصلها ومنبثقتها الأول تأخذ من « المعلومات » و يقينات
الحس والبداهة والحكم العقلى أكثر مما تأخذ من أية منطقة أخرى من
مناطق النفس البشرية . . .

فليس الموطن الأول لهذه العقيدة هو الوجدان ، منطقة الانفعال والاستسلام
أو الثورة ، بل موطنها هو موطن ذلك « البرق » الذهنى أو عقلى الذى ينتج
« حكماً » يرسله إلى الوجدان فينفع له ويتقبله « ويعقده » في طويته ويستسلم
له ويسير في حياته على مقتضاه .

هذا البرق الذى ينتج « الحكم » يستمد « حيثيات » أحكامه من
انطباعات الصور الثابتة للكون في النفس ومن الانفعالات الداخلية لهذه الصور .
والذى أعلمه من علم النفس أن أول « برق » يبرق في النفس وينطبع فيها هو

الإحساس بحقيقة « السببية » التي تفجأ الطفل ويتحرك لها فمه حركة « منسكسة » آلية عند ما تلقمه أمه ثديها ، فيجد أثراً واضحاً لذلك التحريك تنفعل له أعصاب الجوع والشبع .

وكذلك عند ما يصل إلى عينه أو أذنه أول شعاع ضوئي أو أول صوت فيجد له أثراً في حساسية بصره أو سمعه ، ثم لا تلبث الآثار المطردة « الأسباب » أن تتلاحق على مجمع حواسه حتى تنتج طائفة من الأحكام المطردة المبنية على الانفعالات المطردة التي يجدها في حواسه وفيما وراءها .

وهذا ما يقرره القرآن نفسه بقوله : « وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

ويدرك الطفل حقيقة السببية وقيمتها في كل ما يحاول من أعمال فردية ، وتعليقات لجزئيات الحياة ؛ إذ لا يجد شيئاً يقع أمامه أو يناله إلا بسبب ، ولذلك يكون كثير التساؤل عن سبب كل شيء . ومن الأطفال من يرهق والديه ومربييه بكثرة الأسئلة . كل ذلك لأن الفطرة تؤمن بالسببية في حدوث الأشياء ولا تؤمن بالوجود المعتبّط للأشياء ، ولا بسيرها بالاحتمالات والصدفة . فإذا أدرك عقل الناشئ الكون كله كوحدة ، وجاوز مرحلة الوقوف عند الجزئيات ، سأل السؤال الأكبر الذي ما خلق إلا ليسأله ويحجب عليه ، وهو : من خلق هذا الكون ؟ ! .

وعند ما يصل الناشئ إلى مرحلة إدراك الكون كله كوحدة ، لا يتجه بانفعال وجداني إلى « السبب » الأكبر للكون ؛ لأن ذلك الوجدان لم يوجد بعد ، وإنما يتجه إليه بحكمه الذهني الذي يركب قضية ذهنية منطقية في خفاء وبدون ألفاظ ، يحكم بها أن لهذا الكون سبباً ذا قدرة ومشية تدبره

وهي التي أدخلت الإنسان إلى الدنيا العجيبة وتخرجه منها ، ولن يفعل لهذا وجدانه « بالدين » إلا إذا صح لديه هذا الحكم ، فإن لم يصح لديه أن لهذا الكون عقلا يديره فلن يفعل وجدانه لعقيدة دينية إلا تحت تأثير الخوف والتهيب أمام المجهول . وليست هذه مواقف الإيمان الصحيح المستنير الثابت الذي لا يتزعزع ، وإنما هي مواقف الإيمان الأعمى المقلقل الحائر المستعد للقلب ، كما هو الحال في أكثر الذين لا يأخذون الدين بالفكر عند ابتداء صحوهم من ذهول الطفولة .

فالعقل أو قوة الحكم هو صاحب هذا الموضع الأولي من النفس ، ينتج لها تلك النتيجة الأولية التي تجعلها تنفعل بوجودها أنفعال الإيمان ، وهو الجزء « المنبلور » في جميع النفوس — والوجدان جزء مانع — وهو الحكم الذي يكاد يكون من عالم الأرقام التي تنتج نتائج واحدة بقوانينها الواحدة .

ونحن في سبيل البحث عن حجة الله على الناس جميعاً . وإن نكون هذه الحجة في أغلب الأمر إلا عن طريق العقل والفكر الدقيق الذي يحاكمنا الله إليه دائماً في الحياة وفي القرآن ، ويردد اسمه ، ويلومنا ويقر عُنَا بأننا لا نفكر ولا نعقل ولا نتدبر ولا نتذكر ولا نتخذ أسباب الوفاة كما يوحىها العقل .

نعم إن الموطن النهائي للعقيدة هو الضمير والوجدان ، ولكن بعد أن تمر من العقل أولاً وبحكم بوجوب سكتها في الوجدان لتستمد من حرارته قوة الاندفاع والعمل للدين .

وقد كان الوثنيون الذين أنزل إليهم القرآن يعتقدون عقيدة في « وجدانهم » ويتمصبون لها ويصدرون عنها في حياتهم ، لأن أذهانهم كانت تحكم بصحتها

فماذا زعزعا القرآن في وجدانهم وضميرهم ؟ أليس بالحكمة العقلية التي كشفت عن عقولهم ضباب الوثنية القديم ، وأدركوا بها الحق الأول بالذهن والحكم ، ثم أخلوا وجداناتهم من العقيدة القديمة وأحلوا محلها العقيدة الجديدة ؟

والوثنيات تجد في منطق الوجدان وحده مدداً متصلاً ، بالانطلاق وراء الرموز والتهاويل والإثارات الفنية التي هي باب الوجدان . وقد افتخر « طغور » واحتج للوثنية بأنها مجال طيب لرقى الفنون . . . ولا شك أن هذا احتجاجٌ طفلي لا يتصل بسبب كريم بالحق والعقل والكرامة الإنسانية والمصلحة الاجتماعية .

فأقول بأن منطقة الدين هي الوجدان وحده قول غير إسلامي . أخذه المسلمون المحدثون من المفكرين غير المسلمين الذين لم يعرفوا الأساس الأول للإسلام والدين عامة ، والذين وجدوا في أديانهم أسساً يأبها العقل والمنطق ، ووجدوا الدين في ذاته كفايةً نفسية لا بد منها ، فأرادوا أن يجمعوا بين الدين والعقل ، فزعموا أن لكل منهما منطقة قد يناقض ما في إحداها ما في الأخرى ولا ضير ! أما الإسلام فأسسه أن إله القرآن هو الإله الذي وصفته الطبيعة ووجهت العقل إليه ؛ واعتمدت في هذا التوجيه على المحاكات العقلية كأساس أول ، وعلى المحاكات الوجدانية المبنية على هذا الأساس ، وقد استخدم القرآن في سبيل ذلك كله البيان المشرق الجميل البارع المعجز في تعبيره وأسلوبه .

ولم يقصر خطابه على طائفة واحدة معينة ، هم طائفة الذين ارتفعوا عن المستوى العام للناس ، واحتكت عقولهم بما وراء سطح الحياة وما وراء البدهة والحس من عوالم الفروض والصور الطليقة من قيود الحياة الظاهرة ، بل خاطب

الناس بالتقدير المشترك بينهم جميعاً ، وخاطب هذه الطائفة الممتازة في بعض معارضه كما خاطب المبتدئين القاصرين في البعض الآخر .

والقرآن يفرض الفكر ميزاناً قائماً بذاته مستقلاً عن الإنسان ، ثم يعجبه مما يراه في الوجود ، كأنه زائر غريب عن الحياة ، دخل إليها من عالم آخر وهو بكل وعيه ، ولا شك أن الفكر بجميع قواه حينما يدخل إلى الوجود كأنه غريب عنه ، يعجب غاية العجب من بدائعه ، ويحكم الحكم الجازم بأنه لبارئ واحد .

فالموقف الأول من الكون والايمان بربه الواحد ، موقف « جزم » بالذهن والحكم العقلي . إذ أننا نشعر ونحس أننا واقفون إزاء « معلومات » تنتج العلم والحكم الضروري البديهي والمرتب .

وهو موقف ديني سابق على محيى النبوات والرسالات ، لأنها تعتمد عليه في التدليل على قضايها والتحاكم إليه . فالدين عقلى طبيعى فى الايمان بأصله الأول وهو الخالق الواحد .

ولقد وجدنا كل جماعة دينية تؤمن بما عندها بوجدانها . فهل لهذا وزن إلا عند ما يدركون شاكلة الحق الذى عند الله والذى يوحى به الكون ! وهل يدرك الحق إلا بقوة « الحكم » التى هى موضع الحساسية بالعدالة والقوانين الطبيعية التى استمددنا منها حكمنا ، والتى لا تنظر إلى الصور والإطارات وإنما تنظر إلى صلب الأمور ؟

* * *

والقرآن لم يُعْن بأن يرد على منكرى وجود الله . وكأنه لم يفرض وجودهم ، أو كأنه نظر إليهم على أنهم خارجون عن نطاق العقل والبداهة ، ولذلك لم يحاجهم

ولم يوجه إليهم قولاً يشعر بأن لهم وزناً . وإنما وجه حديثه الأكثر إلى المشركين مع الله آلهة أخرى ، الذين من فرط شعورهم بالألوهية استكثروا منها . . . وخلقوا صفاتها على كثير من المخلوقات ، فهؤلاء لديهم الإيمان الوجداني ولكنه إيمان مدخول يحتاج في تعديله وإقامته في نصابه الطبيعي إلى منطق عقلي يستعرض الكون ويستقرئه ويستنتج منه أنه لإله واحد .

فالحديث مع هؤلاء المشركين لا يستلزم إلا الإيقاظ إلى الكون وأعاجيبه الموحية أنه من صنعة يد واحدة . . . وهذا ما فعله القرآن . أما الذين التمسوا وراء حديث الإيمان الفطري مناطق يتحدثون فيها عن ذات الله وصفاته والكون ومبدأ وجوده وعلاقته بالله وصفاته ، إلى آخر مباحث علم الكلام والفلسفة ، فهؤلاء لا يدعون أنهم يؤسسون عقيدة للجمهور بكلامهم ، وإنما يريدون أن يصلوا بين هذا الكون المادى العجيب وبين ما قبله وما بعده . وموقفهم هذا موقف طبيعي ، هو نتيجة للعَجَب الذى يرونه فى هذا الكون ، ونتيجة لشعورهم بأن عقولهم وحكمهم يريد أن يتصل بالغاز الحياة وما قبلها وما بعدها ؛ فإنهم يشعرون أنهم غرباء فى هذا الكون المادى ذى القوى الموزونة والطلعة الجبارة المثيرة للفكر أيما ثورة . ولا بد للغريب أن يبحث ويتقصى ويتعرف المكان الذى دخل إليه ، ويتعرف إلى صاحبه ويبحث عن شئونه كيفما ساعدت الوسائل .

غير أنهم يجب لى يضمنوا الحياة العملية فى الأرض والألفة العقلية ، ألا يشرّدوا ويحملوا عقولهم فوق ما تطيق ، ولا ينسوا أن الإله الحكيم الذى وضعهم هكذا قاصرين عن إدراك كثير من الأمور ، وعن إدراك المبدأ والمنتهى إدراكاً كما يشتهون ويتطلبون ، إنما فعل ذلك لحكمة بالغة هو يعلمها ، فيجب أن يلتزموا حدود « الضيافة » المؤقتة فى هذه الحياة . ولا شك يكون

لهذا الالتزام ما بعده من التناقض بين الفكر والعمل من الألفة العقلية . وما كان للقرآن أن يكون على أسلوب تفكيرهم الخاص وهو قد جاء ميسراً للناس جميعاً . ولكنه مكن هؤلاء العقليين والمتفلسفين أن يؤلفوا من معانيه التي تحت « سطحه التعبيري » قضايا ذهنية يستطيعون أن يستخدموها في أسلوبهم الخاص . فهو قد ساق قضية عقلية عظمى بأسلوب بسيط ميسر للناس جميعاً حينما قال : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ، وترك للعقليين أن يبينوا كيف يكون هذا الفساد حينما يفرض التعدد في الآلهة . . .

وحينما قال : « مَا آتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ . إِذَنْ لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ، وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ » . أرسل هذه للقضايا هكذا واضحة ميسرة ، وترك للعقل أن يتحاكم إلى الكون ويستقرى أحوال الأشياء إذا كانت بين والد ومولود ، وإذا كانت بيد واحدة ، وإذا كانت بأيدي متعددة . وعماد الحكم في ذلك هو الحركة العقلية الآخذة من كل مورد من موارد النفس والكون وكل قوة من قواها لتصل إلى الحكم .

والمتتبع للقرآن يرى أن وراء « سطحه التعبيري » السهل الميسر ، عالماً يمجج بالمسائل العقلية والبديهية والفرضية تضع العقل البشري في موضع أصيل كريم كأنه هو « وحدة القياس » في كل العالم لا في الأرض وحدها .

سائق واحد

ليس وراء ما وضع القرآن عقولنا عليه من أعماق الكون ، مستقر آخر
يصح أن نتعمق إليه ونستقر عليه .

وليس مذهب من مذاهب العقل والفكر الخالص الصحيح يستطيع أن
يأخذنا إلى غير ما أخذنا به القرآن في الطبيعة وما بعد الطبيعة .
إنه أحال كل قضايا الإلهية وكالاتها إلى قوة الحكم العقلي وحده ، فكان
لقاء بديع بين الدين والعقل ، وهو لقاء محب تحتاجه الإنسانية الآن ميسر
الاحتياج ، وإنه لو لم يكن ديناً موحى به لكان المذهب العقلي الطبيعي الوحيد
الذي أثبت الموجود الواحد الكامل الأزلي الأبدى ، قبل أنه يثبت الفيلسوف
الكبير (كانت) بمدى من الزمان طويل .

وأحاول أن أبين أن قضية التوحيد كما ورد بها القرآن ليست قضية تعتمد
على « الجهول » والرغبة منه والتوهم فيه ، وإنما تعتمد على « المعلوم » الثابت
بالحس والبداهة والمحاكمة الفكرية بجميع قوى الفكر من الاستقراء
والتذكير والتدبر والتمييز والضبط والحكم .

ولست كذلك تعتمد في مبدئها على « السماع » بطريق « الوحي » من
عالم آخر ، وإنما تعتمد على الإدراك بالقوى الفكرية الطبيعية في كل فرد
صحیح التفكير ، عالم بالكون ، سليم الطبع ، موزون القوى ، وعلى التفاعل
الفكرى بينه وبين هذا الكون الكبير العظيم ذي الطاعة الأخاذة الجبارة ،
والقوى الموزونة الدقيقة المتناسقة المنسجمة ، ثم ينزل الوحي الإلهي مما وراء
الطبيعة فيؤيدها ويذكر بها ، ويبين ما يلتبس على العامة فيها .

وليست كذلك تعتمد على الجانب « المائع » المتموّج المتقلب في الطبع
الإنسانى ، وهو جانب الانفعال الوجدانى بالإثارات الفنية والأجواء الغامضة
المسحورة ، والشطحات والخطافات ، وجنون الأرواح بالأسرار ، وانسلاخ
القوى ، وتجسيم الخيال ، والاستغراق فى أودية التهاويل والرموز ، وغير أولئك
مما تعتمد عليه الوثنيات التى لا ترى الكون بذلك الوضوح الذى يراها به
الفكر المسلم العالم ، وإنما تراها مبهمين مختلطين غير منفصلين ، فلا يستقيم
لها منطق إنسانى ولا منطق إلهى ، وإنما تلتبس عليها وجوه الكون وتختلط
وتتداخل ، فلا ترى الطريق القصير المستقيم إلى الله الواحد لتشهد به شهادة
إثبات ويقين جازم تفظ مستنير راسخ فى إصرار لا يتزعزع ولا يرتد ، وإنما
يأخذها وجدانها إلى التقليد المبهم ، حيث الإثارات الفنية والأضواء والأصداء
ونداءات المجهول المائل الغامض الخفي ، فتنبض قلوبها ولو فى بيوت الأوثان
ذلك النبض الذى يخلع على الأصنام الأوهام والتخييل ، فترقص أشباحها فى
عيون عابديها ، وتنطق أصواتها فى قلوبهم ، ويحبونها كحب الله إن كانوا
يعترفون به معها ، أو يخلصونها بالعبادة دونه ، ويحيطونها بفلسفات ومحرقات
وكهانات ، ويتحرك لها وجدانهم ، ويشعرون نحوها بقتل ورهبة ، ويؤثرونها
على الله ، ويزعمون أنها الحق ، والوحدانية فريفة واختلاق وعجب من العجب ..
« أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشيء عجاب ! » ؛ « إن هذا إلا
اختلاق » ؛ « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب
الله » ؛ « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون
بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » ، « ويجعلون
لله ما يكرهون » « فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله

فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شَرِّ كَائِهِمْ » ، بل يصل بهم الحال أن يقتلوا في سبيلها
فَيَقْتُلُوا وَيُقْتَلُوا وهم يقولون لصنمهم الأكبر « أَغْلُ هَبْلُ ! »

فلو كان « الوجدان » هو مناط الإيمان وطريقه بدون محاكمة عقلية
واعتماد على استقرار حقائق الكون في سبيل الاهتداء إلى التوحيد والإلهية ،
فما هو إذاً الفرق بين وجدان الوثني ووجدان الموحّد ، وبين إيمان هذا بالله ،
وإيمان ذاك بآلهته وأصنامهم ؟ إن الوثني مؤمن بآلهته بحرارة وجدانية ، ويقاتل
في سبيلها . فأيهما على حق ، وأيهما على باطل ؟ إذا كان الاتجاه في الإيمان إلى
« المجهول » ، وإذا لم يكن التحاكم العقلي الاستقرائي إلى الـكون هو الميزان
والفيصل ؟ وما هي أدوات ذلك التحاكم العقلي غير القوى التي يوجب القرآن
وعلم النفس الحديث استعمالها كالاستقراء أو الاستعراض والاستنباط والتذكر
والتدبر والتفكير والتمييز والحكم ؟ تلك القوى الهادئة الفاصلة المضيفة التي تضيء
للروح طريقها إلى الحق ؟

وهل بأحد حاجة إلى أن أنبهه إلى أن كثيراً جداً من آيات القرآن
تحض على التذكر والتدبر والتفكير والاستقراء والفهم والتمييز واستعمال الحكم ؟
وهل يحض القرآن على التهديّ بقوى الفكر إلا وهي أسلحته وموازينه ؟
وهل يسكن قلب امرئ ممن يعتقد بهم ووجدانه عقيدة أساسية إلا بعد أن
تمر على عقله ويقتنع بها ؟

إن أصحاب محمد حينما تركوا عقائدهم وعقائد آبائهم الوثنية واتبعوا الوجدانية
معه ، وتحملوا من أجل الإيمان بالله وحده ألواناً قاسية من الاضطهاد والعذاب
لم يكونوا أطفالا ، وإنما كانوا مفكرين آثروا الوجدانية على الوثنية بعد أن
أيقظ قوى أفكارهم موقظهم العظيم ، فوازنوا بين الدينين ، وحكموا واختاروا
وتحملوا التبعات .

ثم ما هي حجة الله في مؤاخذه المشرك حين قال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفَرُ
أَنْ يُشْرَكَ بِهِ » ما دام ذلك المشرك يجد في قلبه وعواطفه وهواه ميلا لعبادة
الشركاء والأصنام تماماً كما يجد الموحد هواه وعواطفه في عبادة الله ؟

وكيف يهدد الله محمداً رسوله بإحباط عمله وتعذيبه لو فتن ومال ، في قوله :
« وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَثَرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ
وَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » ؛ وفي قوله : « وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ
تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ، إِذَا لَا أَذَقْنَاكَ صِغَفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ،
نُفِمْ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا وَكِيلًا » . أليس ذلك لأن الموقف الفكري هنا
في عقيدة التوحيد موقف واضح حاد صارم ! لا يحتمل الشبهة ولا الميل يسرة
أو يمنة ، لأنه إزاء قضية الكون كله وأعظم شئونه ؟

فهو حقيق أن يقول القرآن فيه : « وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ
السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ! » .

يا للإهدار والإهانة والتضييع والتعطيم ! يا لالغضب الملك الحليم الجبار
الرحيم عل من لم يرتفعه بعرشه العظيم !

فهل كانت هذه الغضبة الإلهية إلا لأن المشرك ضيع الميزان الدقيق
المهادي الحر الذي وضعه الله بين قوى فكره ، ولأنه صار وراء الانفعالات
التي لا تسند إلى مراكز ارتسكاز واضحة ؟

إن كان يراد بالوجدان ما يسمى الآن « الضمير » وهو تلك الاستجابة
الطبيعية للجمال والخير بدون تعليل ، والنفرة من الشر والقبح بدون تعليل
كذلك إلا لأن الطبع هكذا ، فذلك ليس حديثه هنا ، وإنما في مجال الأخلاق
والسلوك . ونحن هنا إزاء قضية التوحيد ، تلك القضية الفكرية التي تأتي في مرتبة

تالية بعد إثبات وجود الخالق المدبر بالبداهة والقطرة التي من طبيعتها أنها لا ترى حدوث كائن ما بدون سبب ، ثم يتساءل الفكر : هل هذا الخالق المدبر متعدد أو متوحد ؟ ثم يصل إلى « التوحيد » ويوقن به بعد الاستقراء والتتبع لمعلومات الكون وإدراك ما فيه من وحدة التصرف وتوازن القوى المادية العارمة المجنونة العمياء ، والالتئام والتناسق الدائم بينها « فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ؟ » . « أُعْطِيَ كُلُّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » .

ويستلزم الأمر أيضاً أدوات من المعرفة بطبائع التعدد في الأيدي المتصرفة وبالتجارب الأزلية النفسية والاجتماعية بين الأمثال والأشباه من الرؤساء ، وباستعراض مقالات الأديان الوثنية والمعددة للآلهة وما حولها من الأساطير وأحاديث الصغارات والطفوليات في الحلوم والتصرفات ، والمعارك الدائمة بين آلهة الخير وآلهة الشر ، وتفاوت القوى والمواهب بينهم جميعاً ، وانتهاء آفاقهم جميعاً إلى أكبرهم ، يخضعون له ويستمدون منه ولا يستطيعون منه مهرباً ، كما كان الحال مع آلهة اليونان والرومان ، إذ ينتهون إلى (ذيوس) و (جوبيتر) وكما قال القرآن بتلك الحجة العقلية الدامغة : « قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا الْأُبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا » . « مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ » .

إن « الوجدان » بمعناه الاصطلاحي الذي شرحناه لا يفصل في هذا المعترك الزاخر ، لأنه منطقة التبتل والخشوع والاستسلام للإله الواحد أو الآلهة المتعددة بعد انتهاء المعارك الفكرية حولها .

وهو يعمر قلوب جميع المتدينين موحدين ومعددين ووثنيين ، فكلهم سيكونون ويخشعون في معابدهم وفي حالات هيامهم الروحي . هؤلاء يتوجهون لمعبوداتهم المتعددة ، وأولئك لمعبودهم الواحد . . . فما الذى يجعل القرآن يقول عن المؤمنين بالله : « أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ » ، وعن الآخرين : « أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ » ، لولا أن منطق العقل الوزان هي المحسكة وهي المسئلة ؟ .

قلت : إن جدل القرآن في مسألة التوحيد جدل عقلى إثباتى بالبراهين الاستقرائية والتطبيقية والعملية والتاريخية ، فساق براهينه وطالب مخالفه بمثلهما : « قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ » . « هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا » . « قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ، أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ، إِيْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ » . وسأبين ما تنطوى عليه آيات التوحيد في (سورة الأنبياء) من ضروب الأدلة العقلية جميعها بما لا يدع مجالاً للشك في أن القرآن جادل عن التوحيد خاصة جدلاً ذهنياً عقلياً ، ولكن بأسلوبه الغنى المتفرد الذى يحرك الوجدان أيضاً بجماله بجانب الحركة العقلية بحججه .

وقد نبهت في مناسبات شتى إلى ما فى القرآن من تفرد بأنه يقف العقل البشرى عند حدوده ، ولم يكلفه أن يسبح فى غير عالمه ، فهو لم يتخذ عن (الله) إلا للتعريف بصفاته وصنعه فى الطبيعة التى هى مدرسة العقل ومدرجته وأداة تكوينه ومآخذ أحكامه ، ولم يحدده إلا بـ (الذى) خلق ، (الذى) رفع السموات (الذى) له ما فى السموات وما فى الأرض . . . هكذا بالاسم الموصول المبهم بنفسه الموضح بصلته ، وصلته دائماً من (معلومات) الفكر و (بداياته) و (مدركاته) الحسية والمعنوية . . .

ولم يتحدث عن كنه الله إلا مرة واحدة على سبيل التمثيل ، وهي « الله نورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » ، ولكنه ليس تحديداً لكنه الذات العليا ، ولكنه تقريب وتمثيل : « مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ » ، فالنفس تأخذ من هذا التمثيل أن الله هُدى وجمال ولطف وإشراق غير محدود .

ووصف القرآن لله وصف منتزع من الطبيعة : كتاب الله الصامت ، فما أثبتته كلام الله الناطق له ، هو بعينه ما أثبتته الطبيعة كتابه الصامت ، فلو لم يكن القرآن كتاب دين موحى به ، لكان كتاب مذهب عقلى يصف (الذى) خلق هذا الكون بعد أن استقرأ أعمال يده وعلمه وقدرته فى كل كائن من كائناتها .

فهو (الخالقُ البارىُّ المصورُ) لأن أعمال الخلق والبرء والتصوير فى الطبيعة تشهد بذلك ؛ وهو (الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) ، لأن يده دائماً مع الضعف والعجز بين جبروت المواد والقوى العمياء ، حامية حافظة لطيفة رفيقة ، وهو (الملك) ، لأننا لم نجد لغيره شيراً كما فى السموات والأرض ، ولا قطميراً ولا نقيراً وهو (القدُّوسُ) : لأنه الكمال المطلق والموجود الكامل المنزه ، الذى يجده العقل وراء ما يراه فى الكون من نقص ، وهو (السلام) : لأنه لم يجعل العالم جحماً ودماراً وآلاماً وقلقة واضطراباً وصداماً لا يسمح باستقرار الحياة ، ولا باستقرار نظام الأجرام السماوية والأوضاع الأرضية ، وهو أمان الخائف اللانذ الهارب من الشرور والقبح والآثام ، وهو (المؤمن) : لأنه مُصِرٌّ ثابت على اتجاهه بالكون إلى غايات واحدة أزلية هو أعلم بها ، لم يجعل الشر خيراً ، ولا الخير شراً ، ولم يقلب موازينهما ، فالحياة والجمال والخير والرحمة والعلم من حقائق الكون العليا الخالدة ، وسننه التى لن نجد لها تبديلاً ولا تحويلاً ،

فإنه مؤمن بها ؛ وهو (المنعم) : لأن ما فاض منه على الكون من بدنه للآن من فيوض النعم المتوالية والجمال والخير شيء عظيم ، وهو (شهيد حفيظ) لأنه مع كل صغيرة وكبيرة في الكون لا يضل ولا ينسى ، وهو (جبار قهار) . لأنه يسوق الكون الأعظم الهائل بعصاه ، ويمسكه في قبضته ، وهو (حلیم ستار غفور) : لأنه يتيح الفرص للخارجين على الحق والصالح أن يرجعوا ، ويمهل ويملى ويعفو عن كثير من نقائص الطبع البشرى . . . إلى آخر الصفات الحُسنى التي ينتزعها الفكر من الكون ، ويترجمها بألفاظ تكون نتيجة لذلك التفاعل الخفي بين الطبع البشرى مع جمال الكون وجلال طلعه الأخاذة ! . فهل ترى القرآن أتى بشيء عن الله تعالى خارج عن حدود الطبيعة لا يثبت العقل ؟ ! .

إن الفكر البشرى فرض (الأثير) ، وحدده بآثاره ، وأثبتته بخواصه ، مع أنه لا يرى ولا يحد ، وسلم له العلم بإثبات هذه الصفات ، وكذلك يفعل الفكر في إثبات صفات بارئ الكون ، كما تتجلى في الطبيعة ، فينبغى أن يسلم له العلم بذلك بدون حاجة إلى إدراك كنه ذات الله ، ولا كيف تتعلق صفاته بها .

ذلك أمر بمكان عظيم من الاعتبار ، ينبغى أن يعلمه المسلمون غاية العلم ، ويقوموا له بحقه من الإذاعة ، حتى يعلم العقليون والعلماء — وهم قادة الإنسانية في الأمم الحية — أن القرآن كتابهم ، وطريقته في الاهتداء إلى الله علمية في موضوعها وفي نتائجها وفي غايتها ، فلا يسلكوه مع غيره ، ولا يأخذوا عقائده مغمضين ، لأنه هو ينهى عن ذلك : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا » . « وَالَّذِينَ

إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا . « قل إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » .

كل ما فى القرآن من (منطق) الوجدان فى إثبات عقيدة التوحيد أنه ساق القضايا العقلية بتعبير جميل أخذ حرك به الوجدان والمشاعر مع تحريك الذهن والحكم لصلب كل قضية ، ولم يسقها بأسلوب جاف كأسلوب المناطقة أو الرياضيين الذى تتزاحم فيه المعانى فى ألفاظ ضيقة . وأى كلام اعتمد على الحقائق البديهية الخالدة وعلى مقدمات ونتائج صحيحة ، سواء أكانت محسوسة ومنظورة أم غير محسوسة ومنظورة ، فهو منطق ذهنى . فإذا جمع إلى صحة المقدمات والنتائج جمال التعبير وروعة الأسلوب وإشراق الطلعة ، فهو منطق وجدانى كذلك .

منطق الوجدان — وإطلاق (المنطق) هنا تجوز فى التعبير — هو الذى يتفعل بالخطابيات والشعر والموسيقى وغير أولئك من ألوان الفن التى لاتعتمد على الحقائق الثابتة و (نقط الارتكاز) الواضحة فى عالم البداهة و (الحكم العقلى) . والتأثر بهذا (المنطق) تأثر وقتى لا يترك رواسب فى الذهن ومقاييس تملأ البد ، يستطيع الفكر أن يتحرك فيها ، ولأنها ألوان وظلال ونغمات وأعراض غير ملازمة تنفعل لها النفس انفعال الانقباض أو الانبساط وقتاً ثم يزول تسلطها عليها .

ولست هذه الأعراض هى طريق إقرار (العقائد) ودعائم الفكر والحياة عند الراصدين المتيقظين الواعين . وخصوصاً الدعامة الأولى والقضية الكبرى التى هى قضية الكون كله وأعظم شئونه ! إن الوجدانيات من الخطابيات والشعر والموسيقى وسائل إقناع وقتى للبسطاء ، وليست وسائل

يقين ثابت للذين يبحثون اعقولهم عن عواصم تستند إليها من طوفان الأهواء والنوازغ والوجدانيات المتقلبة ... وما كان للقرآن وهو يتصدى لإثبات القضية الكبرى أن يعتمد على الوجدان . وإني أرى الذهن في إثبات (التوحيد) هو أوسع المنافذ وأصدقها وأدقها .

أنسب الآيات التي تناولت قضية التوحيد هي آيات سورة الأنبياء فلنقرأها :
« أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ . لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ! لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ . أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً . قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ! هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي . بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ » فهل ترى هذه الآيات تركت حجة « ذهنية » يمكن إيرادها للسكر على مزاعم القوم ثم لم تفعل ؟

« أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ » فالإله هو وحده الذى يخلق ويحيى ويُنْشِرُ الخلائق من الأرض ، فهذا مقطع من مقاطع الاستدلال بكلمة واحدة يدور بها الذهن فى استعراض سريع للأرض وكائناتها للبحث عن حتى مخلوق واحد لغير الله فلا يجد . وإنه للدليل الاستقرائى بعينه ! ذلك الذى بنى عليه (بيكون) الفلسفة الاستقرائية الحديثة . . وإنه للدليل المفضل عند المرين وعلماء النفس .

« لو كانت فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » وهذا مقطع آخر من مقاطع الاستدلال فى كلمة واحدة أيضاً . . وإنه للدليل التطبيقى بعينه ! أحد ضروب الأدلة الكبرى ، يطبق فيه العقل فى ظروفه المتسعة ما يدركه من لوازم تعدد

الرياسات وفساد الأمور إذا تولتها أيد متعددة سيكون بينها بالطبع ما يكون بين المتعديدين ، ولا يمنع خلافهم وتناقسهم وتحاسدهم أنهم آلهة في طباع مختلفة عن آدميين . فإن البصور البشرى لا يستطيع أن يجرد الآلهة من صفات الناس ، لأنه لا يملك غير منطقته هو ، فهو معذور ؟

« فسبحان الله رب العرش عما يصفون » ذلك موقف وجداني فيه انفعال وتقرز من تلك الدعوى وتنزيه لله عما وراءها من أزمات ومخرجات . وهو موقف معترض للإسراع بالتنزيه ، تعود الآيات بعده إلى الاستدلال : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » وهذا مقطع آخر فيه ضرب عظيم من ضروب الاستدلال هو الدليل العملي الواقعي ، وهو كذلك أحد ضروب الأدلة الكبرى وله في الفلسفة العصرية مقام كبير^(١) إذ به تسير الحياة العملية وهو محور السياسة ..

فما دام الواقع أن جميع الآلهة المزعومة ملك الناس أن يواجهوها بالمسئولية والمحاسبة فلا يصح أن تكون آلهة مادامت تقع عليها الدينونة .. ولكن الذي خلق السموات والأرض لا يملك عابده أن يرفع عينه إليه بتحميله مسئولية ، بل ليس له إلا التسليم والإذعان ما دام عاجزاً عن الهرب من أقطار السموات والأرض ... « من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ، ثم ليقطع فلينظر هل يُذهِبَنَّ كيدُهُ ما يغيظ ! » .

وهل فيما زعمته الوثنيات والإشراكات شخصية إلهية لم تسأل ؛ إن آلهة اليونان والهندوس وغيرها كما وردت في أساطيرهم ذات صفات عاجزة فيها العبث والغلط والمنازعات التي كان وراءها مسئوليات .

ومثل أولئك أو أقل من أولئك كانت آلهة العرب الجاهليين ، فكانوا ينحتونها بأيديهم ويحلمونها ويجعلونها جذاذاً ويصلبونها إذا كانت بشراً

(١) هو مذهب الدرائع : (البرجماتزم) .

وقد يأكلونها . . . كما فعل بنو حنيفة حينما صنعوا صنما من عجوة فلما أصابتهم
مجاعة أكلوه . . .

« أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ! » إذا نحن في مقام
جدل طويل يتسع للرد وقرع الحجة بالحجة وتشقيق الدليل وراء الدليل ، ولسنا
في مقام تسليم بوجودان عن طريق تعريض الحس والقلب للأصداء والأضواء
والخطابات والشعريات والنفحات .

« هذا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي » وهذا مقطع عظيم أيضاً من مقاطع
الاستدلال هو ما يسمونه « الدليل التاريخي » إذ أن التاريخ لم يثبت حياة
رسول جاء قومه بغير الوجدانية فلم يكن محمد بدعاً من الرسل حينما دعاهم إلى
الوجدانية ، ولم يكن المشركون معتمدين على كتاب منير أو إثارة من علم
في دعواهم العدد . . .

إذا فقد سد القرآن مجالات القول والاستدلال أمام المشركين حتى
أثبت أنهم لا يستندون في دعواهم إلى أى حق ، وإنما إلى التكبر والجهل
والإعراض . وكان هذا الختام « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ
مُعْرِضُونَ » نتيجة منطقية ذهنية واضحة لمقدمات واضحة أخذت بضروب
الأدلة جميعاً ولم تترك مفراً لجدل مجادل . . .

إن المنطق هنا منطق ذهني دقيق أخذ من موارد الكون والنفس جميعاً ،
غير أنه ورد بتعبير القرآن الفنى الجميل المعجز الذى يدنى البعيد القصى . . .

ألم يقل : « فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ
قَوْمًا لُدًّا » ؟ وما أدراك ما لدّد العرب وجداهم ! « بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ » .
ولكن « إن كنت ربحاً فقد لاقيت إعصاراً » وقد أتاهم من القرآن
إعصار من البين كبهم على مناخيرهم وأذقاهم ! .

حديث الفلسفة

في العقل البشري ثلاث كفايات : كفاية « التأمل » في الـكون والنفس وما فيهما من مشاهد وأسرار ، وهي كفاية أنتجت « الفلسفة » وأكثر المحاولات الفكرية للوصول إلى تصور صورة كلية للكون وموجده وتعليل وجوده . وقد اختلفت الفلسفات وتعددت ولم تلتق على رأى واحد . وكفاية « الإثبات » وهي مرحلة بعد التأمل العام ينزع فيها العقل إلى تأمل خاص في جزئيات الـكون ليخرج من العموميات الفلسفية ، وهي كفاية أنتجت العلم بمعناه « الحديث » المبني على الحسّ والمدركات الحسية والوصول من ذلك إلى « القوانين » التي يسير عليها الـكون في جزئياته ومركباته المادية ونواميسه العامة .

وكفاية الاعتقاد : وهي مرحلة الوصول والانهاء إلى « حكم » على الـكون كله وموجده يمتزج فيه اليقين الفكرى والطمأنينة النفسية الوجدانية بعد اجتياز المرحلتين السالفتين ، وكأن هذه الكفاية غاية لسابقتها ونتيجة لها ، وبها يدخل الفكر إلى « حكم » عقلى يكون به الانسان فى « أمن » من الشكوك ومزلق الفروض ، ويصير « مؤمناً » أى داخلاً فى عالم الأمن والطمأنينة والإصرار على اتجاه واحد ورأى واحد « دانت » به النفس وجعلته « ديناً » أى نظاماً لحياتها « عبّدت » به قواها وأخضعتها .

وذلك هو التحليل اللغوى والفكرى لكلمة « الإيمان » الذى هو نتيجة لكفاية الاعتقاد ؛ فما هى مقدمات الإيمان فى مرحلة التأمل والفلسفة ؟
هى هذه كما أراها فى أعماق نفسى وتفكيرى :

أنا إنسان صحا من غيبوبة عدم لا يعرف مبتدأها ، فأدرك نفسه وفتح
حواسه على ذلك الكون الهائل البديع ، فتساءل بما فيه من إلهام السببية
البديهية : من خلق هذا الكون العجيب الهائل بأرضه وسماؤه وهوائه ومائه
وإنسانه وحيوانه وقواه وقوانينه الدائمة الصيانة له ؟ ومن خلقني هكذا بديعاً
كامل الأدوات لحياتي في هذا البيت ؟

ثم تساءل : من أدخلني في هذا البيت من غير أن يستشيرني ؟
ومن سيخرجني منه من غير إرادة مني كذلك ؟
تلك الأسئلة هي أبواب الإيمان بخالق . ومن بين التفكير فيها والأجوبة
عليها عرف الإنسان صفات هذا الخالق من علم وحكمة وقدرة وقهر وقدم وبقاء ،
وإرادة ووحدية وغيرها من الصفات ، ثم أحس الإعجاب بذلك الخالق المبدع ،
ثم أحس الحب كل الحب له ، لأنه أكرمه ونعمه حين أخرجه من العدم وأسبغ
عليه الحياة مع أدوات الاطلاع عليها ، ثم أحس الرهبة والخوف حين مسه
الضر والألم ، ثم أدام الفكر فيه . ومن الحب والرهبة والفكر نشأت العبادة . . .
أما كنه ذات الخالق وزمانه ومكانه وشئونه وغاياته في الكون كله ،
فأمور ينبغي للعقل البشرى وهو محدود ألا يخوض فيها حتى يفرغ من إدراك
الكون المادى كله ويحل مسأله . . .

تلك هي حدود الإيمان بأساس الدين وهو إثبات الخالق ، في تفكير
بسيط فطرى لا لجوء فيه إلى غيبيات وسمميات ، وإنما إلى مقدمات عقلية هي
« قدر مشترك » في عقل الفيلسوف وعقل الفلاح ، والحضري والمتوحش ،
وهي ما يمكن سلوكه من الطرق إلى تبين أصول الإيمان بالتفكير . ولا داعي
بعد ذلك إلى ما لا يفهمه العقل العام المشترك بين زنوج إفريقية وأقزام
الاسكيمو وفلاسفة الشرق والغرب .

البعث والمصير

واسكن ما هو مصير الإنسان ؟ !

ذاك سؤال يكاد يكون له قيمة الأسئلة الأولى عند كثير من الناس . غير أن هناك فارقاً كبيراً بين قيمة الجواب عليه وقيم الأجوبة على الأسئلة السابقة ، لأن الجواب عليه متفرع من الأجوبة السابقة ، ولا يصح إلا إذا صحت هي . بل قد يكفي بعض العقول ويريحها من حيرتها أن تؤمن بالخالق وبالحياة الدنيا وحدها ولو لم يكن هناك مصير آخر يحيا فيه الإنسان .. لأننا لا نستطيع أن نبحث في غايات الخالق ، لعجزنا عن ذلك البحث « وأنا لا ندرى أشرُّ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربُّهم رشداً » « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

وتكفي الحياة والإنعام بها على من خرج إليها وأحسبها ، وازعاً للإيمان بالخالق وحبه والتقرب إليه . أما الحساب على الخير والشر ، فالخير جزاؤه فيه والشر جزاؤه فيه .

وهذه نزعة صوفية متفانية متطرفة تشذ عن العقل العام والقدر المشترك ، ولا تتحاكم إلى سنن الخالق وقوانينه في الفطرة ، ولا تطلب منه أن ينفذ ما كتبه على نفسه وقد « كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ : لِيَجْمعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَرِيبَ فِيهِ » .

فهى فى تسليم وفناء مطلق ترى أن تنفى فى إرادة الخالق « إمّا إلى جنة إمّا إلى نار » ..

واعبدوه من غير شئ من الهوى ولا للنجا من ناره وعذابه

وانعود فنقول : إن كل ما فى الأرض من قرائن يدل على أن الإنسان هو المقصود بالخلقة فيها^(١) ، وما عداه فمخلوق له لينتفع به . وله من حياته الفكرية والنفسية والمادية ما يشعره بهذا القصد ؛ فإنها حياة سامية ، معقدة غاية التعقيد ، فيها جانب عظيم غير خاضع للحياة الحسية الأرضية ، ويكفى فى سموها أنها حياة متيقظة لنفسها ، متيقظة للدنيا كلها ، باحثة عن أسرارها المخبوءة فيها وراء الأجرام والكثافات ، حاملة بصور علوية لكمالها هى وكمال الدنيا ، تزعم أنها قادرة على تنقيح الطبيعة ، وإعادة الخلقة كلها على وجه آخر أكمل ! وقد وصلت بالفعل إلى بعض مفاتيح الطبيعة عن طريق العلم ، وهى تفكر الآن يجد للوصول إلى المفاتيح الأخرى ، وستصل . والقرآن يقول : « سَتَرْنَاهُمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » وقد ابتدأت الآيات فى عالم الآفاق وعالم الأنفس بأعاجيب ، فما بالك بما تنتهى إليه ؟ ويقول : « حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَمْثَارًا لَيْلًا وَنَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا » وتأمل فى قوله « وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا » فإذا عرفت أن « الظن » هو الأفق الذى تحت العلم والجزم مباشرة ، تبين لك مقدار ما ستصل إليه قدرة الإنسان فى الآباد الآتية ، حتى « يظن » أنه قادر على الأرض .

فهل من المعقول بعد تلك القيمة العظيمة للإنسانية أن تمضى من الحياة كما تمضى الحشرات والبذور من غير مصير علوى يتحقق فيه القصد من حياتها الأرضية التى خلق لها فيها كل ما فى الأرض ؟ إن سنة التطور والترقى التى يقول

(١) راجع ما فى [أو من بالإنسان] حول هذا المعنى .

بها العلم الحالى تأبى التسليم بهذه الخاتمة الألفية لتلك الحياة الإنسانية الرفيعة . .
تقول بعض الفلسفات : إن الحل لهذه المشكلة هو فى القول بالامتداد
للمستمر فى الأفراد الآتين من النوع . فالكمال الذى ينشده الأفراد ويحملون به
سيتحقق فى النوع . وكأن الإنسانية فى خيال هؤلاء هى المعنى الواحد فى
الأفراد . أما أجسام الأفراد فهى أبواب تنفضوها الإنسانية فى الأجيال المتعاقبة
وتلقاها جثثاً ميتة على طريقها إلى غايتها . . .

ولكن فى هذه الفلسفة إهداراً تاماً للفرد وارتداداً بالإنسانية إلى أفق
واطىء جداً هو أفق النبات والبذور ، دع عنك أفق الحيوان . ونظرة واحدة
إلى إخراج الأفراد من الأرحام بصور متعددة الوجوه ، وشكول مختلفة فى
العقول والنفوس — وهذا فى الإنسان فقط — تحملك على الجزم والاعتقاد
بأن القصد فى الطبيعة متجه إلى خلق الفرد بالذات ، وإحساسه على انفراد بالحياة
التي فيه هو ، وأنه مخاطب وحده مباشرة من « خالق الوجود » .

وإن هذه الفلسفة لتبعث القنوط فى الفرد ، لأنه يشعر معها كأنه مسمار
فى نعل الإنسانية ! وإنها لتبعث فيه الشرود والجروح فى الحياة ، لأنه لا غاية
فردية له من حياته ، ولا هو يدرك الغاية من وجود الإنسانية كلها . . .

وإذا كانت الشيوعية المطلقة لم ترضها الإنسانية فى الغايات الاقتصادية
فتفنى فيها جهود الأفراد للمجموع فناء مطلقاً ، حتى فى الدول الشيوعية ، فكيف
ترضاه فى غايات الحياة ؟

وفى قنوط الأفراد وفى جموحهم دواع إلى خسة النفس ودناءتها وثورتها
على الحياة ، بحيث لا يرجى للإنسانية بعدها ترقٍ ولا صلاح للحياة الجمعية .
الحق أن الفرد مقصود بالخلق ، مخاطب من واهب الحياة مباشرة بما
فيه من الإدراك ، مراعى فيه تميزه بصورته ونفسيته ليشعر بفرديته وغايته الخاصة

أولاً . والقدر المشترك الذى بينه وبين الإنسانية لا يحمله على الاعتقاد بأنه فيها كبذرة فى نوع من الشجر ؛ ولا كسمار فى نعل ، ولا هو يشبه أخاه كما يشبه الغراب الغراب ، والنملة النملة . . . فالفروق بين أفراد الأنواع الأخرى فروق ضئيلة لاتكاد تميز فى الصورة . ولا فى الإدراك ، بخلاف الإنسان فإن تنوع صورته الظاهرة والباطنة أمر محير ! .

ومن أعجيب القرآن إثبات الفردية واحترام الذاتية ، فى تقريره : « وَكَلَّمَهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا » وقوله : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » وهذا فى الواقع أساس عظيم لحرية الفرد وحقوقه وتبعاته ، جدير بأن ينوّه به ، ولا أعلم أحدا تحدث فيه .

وإنى لأتساءل دائماً : ما الذى أوجد فى نفوس الإنسانية ذلك الشعور الثابت بأنها لاتفنى ولا تنتهى حياتها بدخولها المقبرة ؟ ولماذا لم تحملها مוחيات الحياة ، على غير هذا الشعور لو أن الأمر كان غير ذلك ؟

ثم لماذا نجد فى خيالنا صورة حياة كاملة لا قيود فيها للجسم ولا للروح ؟ من أين لنا هذه الصورة ؟ إن كل شىء قد حظى بكماله فى دنياه بغير نزوع منه إلى حياة أأكمل ؛ مما يدل على أنه قد خلق للحياة هنا فقط ، بخلاف الإنسان فإنه يشعر كأنه طير مقصوص الجناحين ، لا يزال يحلم بالجو الذى خلق ليعيش فيه وكيف يؤمن مثل (أديسون) أو (ماركونى) بأنه يفنى فناء لارجعة

بعده ، بينما الأرض مملوءة بآثاره فى الكشف والاختراع ؟

إن العلم يقول إن الأرض ستفنى بفناء الشمس أو انطفائها ؛ فأين يصير ما هنا من الفكر والعلم ؟ وماذا يفيد الفرد من كمال النوع الإنسانى لو أن الحياة كانت للنوع لا للأفراد كما يقول (نيتشه) وأصحاب مذهب الرجعة إلى هذه الدنيا مرة أو مرارا ، مادام الفرد لا يشعر بذلك ؟

ألا إن هناك (ولادة ثانية) كما يعبر الإنجيل ، هي النبعث بعد الموت
ليوم القيامة والحياة الدائمة الكاملة . . .

وإن مصير الإنسانية ليس بالأمر الذى يمر عليه القلم بدون إلخاح فى تركيزه
فى العقول وتبيين آثاره فى الحياة وفى النفس . إنه الحياة كلها فى رأى الدين ،
والعدم كله فى رأى الإلحاد . وشتان ما بين الحياة كلّ الحياة ، والعدم كلّ
العدم فيما وراءهما من آثار ! شتان بين أن يعتقد الإنسان أنه جنين فى بطن
الدنيا سيولد منها ولادة ثانية ، وأن يعتقد أنه سيخرج منها سقطاً مسبوتاً هالكا
إلى غير رجعة ! إنها مسألة عظمى فى قيمة الإنسان وفى سكينته واطمئنانه إلى
مركزه فى الحياة .

إن الإنسان العادى لا يخطر على باله أن يتلقى القول بأنه مخلوق للحياة هنا فقط ،
دون أن يشور على الحياة أو يقنط قنوطاً قاتلاً لحيويته .

لقد وصل القول عند بعض الفلاسفات إلى اعتبار الإنسان مظهر الإلهية ،
أو شرارة من روحها ! فكيف إذا ينطمس هذا المظهر ، أو تنطفئ تلك
الشرارة ؟

ثم لنرجع إلى ما يثبتته العقل للخالق من حكمة وعدل تقتضيهما ضرورة
الكمال الإلهى الذى لا يستطيع العقل أن يستغنى عنه كصفة ثابتة للموجود الكامل ،
فنتساءل هل فى الدنيا مع آلامها وشرورها عدل مطلق ؟ يجيب المؤمن والملاحد
عن ذلك جواباً واحداً : كلا ! ثم يفترقان ، فيذهب المؤمن إلى أن كمال العدل
المطلق وراء هذه الحياة ، فى تلك الحياة المثالية التى فيها كل أمثلة الكمال وأطراف
السعادة التى طافت بأحلام جميع الناس وسكنت رؤوس الفلاسفة والحكماء ،
أوجدتها فى نفس الإنسان إلهام عميق خفى لتم الصورة العقلية للكمال الإلهى .

وفي هذه المقدمات وفي نتائجها المستمدة من منطق الطبع ومنطق التجريد
راحة النفس المؤمنة وسكونها وطمانينتها .

أما النفس الملحدة فماذا عساها أن تصنع غير طيران خواطرها في فراغ
لا قرار له ؟ إنها لا تملك أن تسقط على قرار حتى تتحطم فتستريح ! وملاك
ما تنتهى إليه أن حياتها كحياة تلك الحشرات والديدان التي تعيش على الروث
والعفونة في الظلمات ثم تموت عليها وتدفن فيها ! ولتخى بعد ذلك السموات
أو فلنسقط ! ولتكن هذه العوالم الزاخرة بالعلوم والجمال والعجب العجيب لتراها
فقط أشباح تلك الحشرات الصغيرة والكبيرة من بُعدٍ فتقتل غيظاً كل يوم
ألف مرة ، ثم تذهب إلى غيوبتها الكبرى مع الجمادات كما كانت ! والحياة
إذن بلا قصد أو غاية ، والروس الإنسانية إذن تفرز التفكير كما تفرز الكبد
الصفراء ، أو كما يفرز ذيل العقرب السم ! .

سلام لك أيتها النفوس المعذبة مما أنت فيه وإنه لعذاب غليظ ! .
إن الإلهام الذى فيك من الخالق يناديك : أنت المقصودة بالخلق
فى الأرض . . . أنت خالدة . . .

« يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ،
فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي » .

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَا عِيبَ . لَوْ أَرَدْنَا أَنْ
نَتَّخِذَ لَهَوًا لَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ . بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى
الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ، وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ! »
« وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ : لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتَ . بَلَىٰ ! وَعْدًا عَلَيْهِ

حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون . لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ . إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَن نَقُولَ لَهُ : كُنْ ، فَيَكُونُ ! » .

ثم ما دام كل ما في الفلسفة فروضاً لا تصل إلى العلم اليقيني ، فما بالنا نترك الإيمان بوجود مصير رفيع للإنسانية على أنه فرض فلسفي ؟ إنه أصبح الفروض وأصلحها للحياة الدنيا وأدعاها إلى الإصلاح المستمر المخلص . وهنا دليل يستنبطه العقل من بين ما أقول : ذلك أن أقرب الفروض إلى الحق في دنيا الواقع هو ما يدعو إلى صلاحية النفس للحياة وإصلاحها لها ، وما يُحَلُّ به أكبر مقدار ممكن من المشكلات ، وما صح تطبيقه على وجه الشمول بين الناس في كل مكان وزمان . ذلك مبدأ تسلم به الفلسفة والعلم ومذاهب الأخلاق والعمل . ومصير الإنسانية إلى حياة أخرى أسمى من هذه الحياة هو ذلك الفرض الذي ينطبق عليه ذلك التعريف السابق ، هو لا غيره . وقد عودتنا الحياة المدنية أنها لا تحترم ولا تُتَّبَقِ إلا ما يتفق مع حفظ قوانينها ويضمن أطراف تقدمها ، فمتى أخلينا الدنيا من هذا الفرض أمام الإنسان فهناك تكون حالقة العمران . وإذا كانت معرفة مثل الزهاوي أن الإنسان لا يأتي إلى هذه الدنيا مرتين قد حملته على أن يطلق لنفسه العنان في اقتراف اللذات ويدعو إلى ذلك فيقول :

لَا تَقِفْ فِي وَجْهِ لَذَّا تَكِ مَكْتُوفَ الْيَدَيْنِ
أَنْتَ لَا تَأْتِي إِلَى دُنْيَاكَ هَذِي مَرَّتَيْنِ

فما بالنا لو عرف الناس أنهم لا يأتون إلى دنياهم ولا يذهبون إلى مصير آخر ؟ إنهم يفعلون كل جريمة للذة وانتهاز فرصة الوجود الواحد في هذه الحياة التي ليست حينذاك إلا وليمة أديها لنا القدر لتتأذ وتنتهى فيها كما قال الأول :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار
وحق لهم أن يفعلوا ذلك ! .

« وينبغي أن نعلم ونتذكر دائماً أن « الحياة » إنما تحفل غاية الاحتفال بعقليات أكثرية الإنسانية ؛ لا بعقليات هؤلاء الفلاسفة المسرفين . وقطيع الإنسانية يسير بإلهام مركب كما تسير قطعان الحيوانات الأخرى بإلهام بسيط . وإذا كانت قطعان الحيوان لا تحتاج في حياتها إلى فلسفة لأنها تسير بنظام أشبه بالنظام الآلى ، فإن الإنسانية تحتاج في سيرها في الحياة إلى الفلسفة ، ولكن من غير إسراف . فلا يفرض متكلم أو فيلسوف شدت فيه شعلة الخيال والذكاء وقوة الافتراض ، عقله وطريقة إدراكه الأشياء على جميع عقليات الإنسانية المرهونة بالبسائط والسجينة في أقفاص فولاذية من الضرورات الجسدية . وقد دلت الإنسانية بتاريخها العتيد أنها لا تستجيب لخيال الفلاسفة المسرفين . ومن مصيبة بعض الفلسفات أنها تتخذ الشك ديناً ؛ والشك حسن على أنه باب إلى اليقين عند من في عقولهم رباطات تفهم عند البديهي ، لا على أنه حالة استقرار ؛ فإنه حينئذ يُجَنُّ وَيُشَقِّقُ ويُشرد العقل الإنسانى من حياة الإلهام البسيط والمركب . وكل شيء في الحياة لغز وأحجية ، من ذرة المادة وصورها وتكوينها وطاقاتها وقواها ، إلى الروح وأسرارها وخفاياها . كل شيء يحمل كل عقل بصير يقظ على أن يقف أمامه دائراً بأسئلة عنه لا عدد لها . وقد قال (ماسكن) العالم الكهربي : « خبروني ماهى المادة أخبركم ماهى الروح ؟ » وقد خابت الفلسفة اليونانية القديمة في أن تخرج ديناً عاماً يتبعه جميع اليونان ، دع عنك أكثر الناس . وكانت كل مدرسة من مدارسها لا تظفر

إلا بعدد محدود من التلاميذ ، لا يلبثون أن يتفرقوا بعد موت أستاذهم أو في حياته ، من غير أن تقدم إحدى تلك المدارس إلى الناس وازعاً يقوم مقام وازع الوثنية التي كانت تَضجُّ بها معابدهم . ولا يزال الفلاسفة خائبين في إيجاد ذلك الوازع الأدبي الذي يحكم الجماعة من الداخل كما تحكمها القوانين من الخارج . ذلك لأن الإنسانية ممدودة بالإلهام الذي يربطها بما وراء الطبيعة ، ولن تستغنى عن وازعه بما تقدمه لها العقول المادية المحدودة بحدود المادة ، إذ هي من جهة حائرة : أي هذه العقول تتبع ؟ ومن جهة أخرى ، هي لا تؤمن بالإيمان الديني بما تصنعه هي ، ولا تعتمد عليه في رغبتها ورهبتها في حالة التعبد ، وما تقدمه إليها العقول المادية مصنوع مخلوق أمامها ، فهو أرضى ضعيف غير ممدود بما وراء الطبيعة ، فلا يعزى ولا يهول . وهذا هو ما يسلمنا إلى الحديث عن النبوة وضرورتها في موضع آتٍ .

حديث العلم

لا حاجة بنا إلى إفاضة القول في أن العلم بمعناه الخالي — وهو اليقين والإثبات المبني على التجربة والمشاهدة الحسية — إنما هو من أدوات الإيمان بالخالق المدبر . فلو فرضنا وقالت كل الفلسفات والجدليات التجريدية : إنه ليس هناك خالق للكون ، لظل العقل العلمي وحده يقول بوجود ذلك الخالق ؛ لأن كل ما في الطبيعة يشير ويصيح بأن له خالقاً عالماً ، يقف أمامه العقل العلمي حائراً دهشاً من سر صنعته وتركيبه وإعداده !

واعتقادي أن أكبر خادم للإيمان هو العلم الكوني ، وأن المختبرات « والمعامل » لو أنصف الناس لجعلوها من أقدس المحاريب التي يُعبد فيها الإله بالفكر ، وينعت بما يليق بكماله وإحاطته بالجزئيات والدقائق !

والإلحاد بين علماء الطبيعة أقل منه في أي طائفة من طوائف علماء العلوم والفنون الأخرى ؛ ولذلك قال القرآن « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وصدرُ الآية يدل على أن العلماء هنا هم علماء علوم التكوين المتأملون فيها ؛ إذ يقول « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك . إنما يخشى الله من عباده العلماء » وقد شملت الآية علم النبات ، وعلم طبقات الأرض ، وعلوم الإنسان ، وعلم الحيوان ، وهي مجال تجارب « العلم » بمعناه الحديث .

ولو أن علماء الطبيعة يدخلون معاملهم ومختبراتهم ، مستحضرين روح

العبادة ، كما يفعل الناس إذا دخلوا إلى المعابد ، إذا أنزل عليهم إلهام وتوفيق وذات لا تغنى .

والعلم لاسلطان له على البحث في ذات الخالق ، لأنه ليس من مجال تجاربه فجاله ما يقع تحت الحواس ، وإنما يستطيع أن يستنتج صفات الخالق بنظراته الجزئية في مواد الطبيعة وطاقاتها وقواها ، وبنظراته الشاملة للقوانين الكبرى التي بُني عليها الكون ويسير بها ، كموقف إسحاق نيوتن صاحب نظرية (الجاذبية) حين قال :

« إن خالق هذا الكون على علم تام بعلم الميكانيكا !
وعلماء الطبيعة إن ألدوا في إله الكنيسة ، فلن يحددوا في إله الطبيعة الذي يجدون يده وعلمه وراء كل شيء ، فيتلقون منه أسرار التكوين .

ومن المؤسف أن إله الكنيسة في أغلب الأديان غير الإله كما يدركه العلماء في الطبيعة . . . هو إله بشري يتشكل في أجساد البشر في بعض الأديان ، خاص بقبيل من الناس في بعضها الآخر ، محب للدماء في البعض الثالث ، محب لعذاب الناس وفناء أجسادهم في البعض الرابع ، معقد فيه ناسوت ولاهوت وأقانيم متعددة في البعض الخامس . . . وهكذا وهكذا ، مما يعذر معه العلماء السائرون مع الفطرة إذا لم يؤمنوا إلا بمن يجدون يده وحده في الطبيعة . .

وهنا يمتاز الإسلام امتيازاً رائعاً في تقديم صورة للإله هي أسمى ما يمكن أن يدركه عقل علمي عن الكمال الإلهي مع بساطة وتجريد مطلق من ملاسبات المادة ، واستيعاب كامل هو سر الفطرة وطابعها العام ، مما يأخذ بنواصي جميع

الناس ، علمائهم المنتهين وجهالهم المبتدئين ومن بينهما في آفاق المعرفة والإدراك ، في القطبين ، وفي خط الاستواء ، وفي الشرق والغرب .

والواقع أن كل الأديان الإلهية قدمت هذه الصورة التي يقدمها الإسلام ويدركها العقل . ولكن يد التحريف ، وحب التأويل ، وتزييدات الكهان ، وعوامل الفناء التي لحقت الأديان ، وتقلبات الحوادث بنصوصها الأصلية ، هي التي مسخت الصورة الرائعة الكاملة التي قدمها الرسل عن الإله كما أوحى إليهم .

* * *

لقد وصف الإسلام الإله وصفاً منتزعاً من عمله تعالى في الكون ، وهو وصف يرضى جميع الناس ، فوصفه بأنه جبار قهار ، ورحيم لطيف ، ومنتقم ورؤوف ، إلى آخر الأسماء الحسنى ، ليرضى أمثال زنوج أفريقيا ، ومغول التبت وأجناس المجاهل الذين لا يعبدون الإله إلا إذا كان مخيفاً جباراً ، ولذلك يصورون آلهتهم بصور هائلة ذات رؤوس وأيد وأرجل عدة ، ويرضى تصور أمثال اليونانيين الذين كانوا يتخيلون آلهة متعددة للرحمة والجمال والقوة والحب والحرب وغيرها .

والإسلام يقول لهؤلاء وهؤلاء : ربكم واحد ، له جميع ما تتصورون من الصفات الحسنى التي استمدتها عقولكم من الطبيعة وتعارفتم عليها ، فالتقوا جميعاً في رحابه بعبادة واحدة وأسلموا وجوهكم وقلوبكم إليه . « فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم » ، « وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله » ، « هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم » ، « هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر » . سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق

البارئ المصور . له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

* * *

ولبساطة العقيدة الإسلامية ووضوحها وقوتها وتمشيها مع بدهة الفطرة ، لم يجد الإلحاد طريقاً إلى الذين اشتغلوا قديماً بالفلسفة والعلم من المسلمين ؛ لأنهم كانوا مزودين بتلك الصورة الواضحة البسيطة من قضايا الدين ، وكانت الفروض التى قرأوها فى الفلسفة اليونانية والهندية والفارسية وغيرها فروضاً ناقصة أو معقدة أو مختلة لا تنهض أمام ذلك اليقين الفطرى الذى يستطيع الفلاح والفيلسوف أن يفهماه ويعتقده بكل راحة وطمأنينة فى الإسلام .

والعكس عند غير المسلمين ، فقد كان كل فيلسوف أو عالم طبيعى لا بد أن يكون « هرطيقاً » لأنه يمد يده لتغيير ما فى الطبيعة وحل ماعقده الله ، ولذلك كان كل من يدرس الفلسفة أو العلم مطاردًا من الساطة الدينية ، لأنها تعلم أن العقيدة الموروثة ستزلزل أمام التفكير ؛ ولما خابت المطاردة ، نظراً إلى نزوع الناس وتطور الزمان ، وهجوم العلوم ، زعموا أن الدين قلبى وجدانى فقط لا أثر فيه للتفكير ، وإنما يستند إلى الشعور ؛ ليقولوا بعد ذلك إن الإنسان يستطيع أن يجمع بين متناقضين أحدهما يسكن فكره ، والآخر يسكن قلبه ! مع أن أساس الدين قائم على التفكير ، وإلا ما لزم حجة الله أحداً من خلقه ، مادام فكره لم يعقل ولم يفهم وهو منصف ، بل مادام فكره ينقض ما يأتى به الدين فى بعض الأحيان .

وقد بينا سالفاً أن المسلمين ورثوا هذه الفكرة الباطلة مؤخراً من أرباب الأديان الأخرى ، مع أن الإسلام قائم على التفكير ، وحجته العقل ، ومعجزته عقلية دائمة تسير مع رشد الإنسان وتقول له : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » ،

« وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ! »
« قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ : أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَىٰ وَفَرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا »
وآفة الإسلام هي جهل أكثر المسلمين بأصوله وتفصيله ، واتباعهم
القضايا التي لم تمحس وتنطبق على بيئتهم وما فيها ، وتسليمهم بالنظريات الغربية
في الدين كما يسلمون بالمسائل العلمية المادية .

وأحسب أن أكثر قادة الفكر والمصلحين الغربيين لو أتيح لهم أن
يطلعوا على الإسلام الصحيح لتغيرت أحكامهم التي أرسلوها في مسائل الخلاف
بين الدين والعلم . ويكفي دليلاً على ذلك مقال فلتير في مارتن لوثر : « إنه
لا يصلح أن يحل نعل محمد . . . » مع أن فلتير لم ينصف محمداً ؛ للسيرة المشوهة
التي لم يتهماً له أن يعرف عن محمد سواها ، ومقال جوته لحدثه عن الإسلام :
« إذا كان الإسلام كما وصفت فنحن كلنا مسلمون » .

ومن قرأ كتاب (الزنجية تبحث عن الله) لبرناردشو ، يدرك أن (شو)
ارتفع بمحمد والإسلام إلى قمة الأنبياء والنبوة . وسيرة « جوته » تدل على أنه
أعجب بالإسلام ، ولذلك شرع في تعلم العربية وفي تأليف « رواية » عن محمد
وقد مدح أسلوب القرآن وطريقته ككتاب دين . وكلة جوته التي أشرنا إليها
سابقاً تدل على أن أي عقل متمرد قد يجد سلامه وطمأنينته في الإسلام . ومقال
كارايل عن رسول الإسلام لا يغيب عن بال أحد ممن قرأ كتابه (الأبطال) .
وهكذا وهكذا مما لا مجال لذكره هنا ، ومما يبين قوة غزو الإسلام
للعقول المتمردة والآراء الفلسفية ، ومما لا يصح معه إدخاله مع غيره في مسائل
الخلاف بين العلم والدين .

واعتقادي أن الإسلام هو الذي يستطيع وحده في هذا العصر أن يحمى
الإيمان من أن تجرفه تيارات المادية والإلحاد ، وهو الذي يستطيع أن يُقرّه

في كل نفس كما هو في الطبيعة البشرية بجانب « نزعة الإثبات » التي أنتجت العلم و « نزعة التأمل » التي أنتجت الفلسفة ، بحيث يعود الإيمان باعث فخار بين الناس كما كان ، وكما يفتخرون الآن بالعلم والفلسفة ؛ لا كما يفضي بعضهم منه حياء إذا قيل عنه إنه مؤمن . وترجمة هذا القول عند الجهال بالعلم والدين معا : إنه مخرف . . .

وقد تراكت عقد خفية في نفوس أهل هذا العصر حول الدين ؛ لأن كثيراً من الذين ينتسبون إليه حملوا عليه ميراثاً كبيراً من انحرافات ، ومن تضيق الواسع ، ومن غباوة بعض رجاله الذين لا يعرفون المهمة الأصلية فيه ، ومن تحويل الدين إلى نوع من العصبية الذميمة (والهستريا) المنفعلة المغفلة عن حكمة الله في اختلاف الإنسانية في الآراء والمعتقدات .

وكم هي كبيرة جناية الرموز والطقوس وثياب رجال الدين وشاراتهم وسماتهم التي تميزوا بها من غيرهم ! إنها جناية تحويل الملكية العامة إلى احتكار . . . وجناية إقامة السدود والقيود على الطريق الواسع الذي يوصل كل شخص إلى الله . . . وجناية تحديد أبواب معينة لا يحل لأحد أن يجتاز إليه من غيرها . . . وجناية إقامة حراسة وخفارة عليها من فئة معينة ، ربيت تربية خاصة منفصلة عن تربية بقية الناس ، لا يدخل أحد إليه إلا بإذنها . . . وجناية تحديد بقع ضيقة من الأرض لا يحل التعبد إلا فيها ، بعد بخور وعطور وطبول وزمور . . . كأنهم يستحضرون غفريتنا من الجن إلى حفلة زار !

وقد أطلق الإسلام الدين من كل هذا الذي أنصقه به الأطفال والمجسمات والمشبّهة ، وجرد محيط العبادة من التماثيل ، والصور والرموز ، وجعل الأرض كلها مكان عبادة ، وأعاد إلى الطبيعة قيمتها كمحراب دائم للصلاة ، وجعل

روح الدين في الشارع والسوق كروحه في المسجد : ففي السوق والشارع عبادة عملية ، وفي المسجد عبادة نظرية هي موقف تصفية وجرد نشئون الحياة كلها ولم يجعل طبقة معينة تحتكر شئون الدين وتلبس زياً خاصاً بها ، بل حتم على جميع معتنقيه أن يكونوا علماء به ما أمكنهم العلم . ورأى لأئمته أن ألا يترىوا بزى خاص بهم ، حتى لا يشعر الناس بانفصال حياة الدين عن حياة الدنيا .

ولو فهم الناس أن الدين في الشارع والسوق أهم منه في المعبد لتغير وجه الحياة وسير التاريخ ، ولحلت المشكلة التقليدية الموروثة المعنونة « الدين والدنيا »

وأؤكد أن كثرة حوادث افلات المعلمين من العقيدة الدينية ليست ناشئة من أن عقولهم لم تقتنع بالأفكار الأولية الرئيسية فيه ، وإنما منشؤها أن هذه الأفكار الرئيسية قدمت لهم في هلاهل من الخرافات والمتناقضات والألغاز ، ولأنهم وجدوا أن تاريخ رجال الدين مع الأسف الشديد تاريخ مملوء بالجود ومواقف العداوة للعلماء الطبيعيين الأولين الذين كان لهم فضل الاهتداء إلى مفاتيح العلوم التي نالت الإنسانية منها كثيراً من الخير والبركات ، وصار رجال الدين الحاليون أنفسهم يتمتعون بها ويأخذون بمنافعها كما يأخذ سائر الناس ، بعد أن كان أسلافهم يصيبون عليها شأيب السخط واللعنات ، ويحرقون وينكلون بمن يجرؤ على التحدث عنها في الفلنات بعد الفلنات . . . ومنشؤها كذلك أن رجال الدين منعزلون عن حياة أ كثرية الناس ، هم لباس خاص ، ويكاد يكون لهم منطق خاص بهم وحدهم . والحياة الحالية حياة عظيمة السلطان على النفوس ، تُعْرِى جميع أبنائها بالاندماج في موجاتها ،

وتعد من يعتزلها وينأى عنها رجلاً فيه مسّ ونقص وشذوذ . وكل مخلص
لدين مقدّر آثاره في الحياة وفقّرَها إليه ، وفسادها بدونه ، يرى من الخطر أن
يظل لرجال الدين ثيابهم السكّهوتية وطقوسهم التي ما أنزل الله بها من سلطان ،
لأنها توهم الناس أن الدين في تلك الثياب والرسوم العجيبة ، ويرى من الخطر
أيضاً أن يفرق شباب الأمة فئتين : فئة لعلوم الدنيا منذ التعليم الابتدائي ،
وفئة لعلوم الدين منذ التعليم الابتدائي ، وليس بين الفئتين مرحلة يسرون فيها
جنباً إلى جنب حتى يتنفسوا في جو واحد ويقسوا بمقياس واحد . وإذا كان
هذا التفريق قبيحاً في أية أمة فهو في الأمة الإسلامية أقبح القبح ! لأن
الإسلام هو المعيشة بالجسد والروح عيشة متناسبة ، وهو دين يجعل التمتع
بالذات المحللة عبادة إذا ذكر اسم الله فيها ويجعل خدمة العلوم الدنيوية
لمفيدة فرضاً يحاسب الله على إهماله ، ويطلب من الإنسان أن يعيش عيشة
رحبة عميقة بكل قوة في تكوينه . فلماذا التفريق في التعليم وفي الناس تفريقاً
يوحى إلى النفوس بمعان من التعصب والاحياز ، ويلقى في رُوع الناس أن
حياة الدين منفصلة عن حياة الدنيا ؟ !

إن اليوم الذي توحد فيه برامج التعليم في المرحلتين الابتدائية والثانوية
في جميع المدارس المدنية والمعاهد الدينية بحيث تحتوي البرامج على التربية
الروحية التهذيبية والعلوم المفيدة للجميع ، ويوحد فيه الزي بين أبناء الأمة
جميعاً سواء أكان عمامة للجميع أم أي لباس للجميع ، هو اليوم الذي تصير
فيه الحياة الفكرية والروحية مزيجاً مؤتلفة فيه جميع عناصر الحياة اللازمة
لكل نفس بدون تكلف أو احتراف .

وهذا هو ما كان عند الجماعات الأولى من المسلمين في زمن الرسول
وخلفائه . فقد كان الرسول جندياً مع جنوده ، وعاملاً بيده مع عماله ، وعابداً

وحا كما ورجلا يعيش بجميع قوى جسده ونفسه ، يلبس جميع ألوان ثياب قومه ، ولم يكن يتميز على أصحابه في شيء من السمات الظاهرة . فمن تبعه صار يلبس مثله . ولذلك كانوا كلهم في مظهرهم رجال دين ودنيا يتفاضلون ويتمايزون بالعقل وكثرة العلم لا بالسمات والشارات . فمن كان عنده علم من الدنيا ، أفتى فيه وبذل منه وعرفه الناس به فقصدوه من أجله ، ومن كان عنده علم من الدين أفتى فيه وبذل منه وعرفه الناس به فقصدوه . وليس وراء ذلك فارق ما . فلا جرم بعد ذلك ألا تكون هناك شقة خلاف وهوة شقاق بين الدين والدنيا عند المسلمين الأولين بمثل ما هما عند المسلمين المتأخرين الذين ورثوا ميراث هذا الخلاف من أمم الغرب ، وزعم المبطلون أنه أصل عندنا كما هو عندهم .

وقد كان من الواجب — لو قطنت الأمم الإسلامية — أن تظل الدراسات السكونية ضمن نطاق العلوم التي تدرس في المعاهد الدينية ، كما كان الشأن عند المسلمين في الدولة العباسية والدول التي تلتها إلى أن جاءت نظم العصر الحديث في عهد محمد علي . إذ أظل العلم بما في الدين وما في الدنيا وحدة غير مجزأة ، يخرج الإنسان المتحلي بها كامل القلب والعقل ، تلتقى عنده الثقافات ويمتزج على التوفيق بينها ، وبناء الحياة الاجتماعية عليها . فما كان عند المسلمين سبب يدعو إلى التفريق في المعاهد وإخراج علوم الدنيا عن نطاق الدراسات الدينية .

وقد ظل (الأزهر) ، وجامع (التجف) ، والزيتونة ، وجامع القيروان ، ومساجد بغداد ، ومعاهد الشام يدرس فيها الفلك والحساب والرياضيات والطب والطبيعيات والموسيقى إلى أن أتى العصر الحديث .

وقد كان المتعلم لا يخرج إلا من هذه المعاهد وأمثالها . ولذلك أخذ محمد علي — منشيء الدراسات الحديثة في البلاد العربية — أغلب أفراد بعثاته

إلى أوربا من طلبة الأزهر ، إذ كانوا هم الطبقة المثقفة من الشباب . وقد كان بعض العلوم الدينية يدرس في عهد محمد علي في المدارس التي أنشأها للهندسة والضب وغيرهما .

ولكن جمود بعض المشايخ في عصر إسماعيل ، وامتناعهم عن إدخال العلوم الحديثة بنظمها الأوروبية في الأزهر ، هو الذي جنى على الإسلام كما جنى عليه امتناعهم عن إنشاء قانون مستمد من جميع مذاهب الشريعة الإسلامية يسير روح العصر الحاضر ، ويكون متناولا ما جدّ في الحياة من مشكلات ومطالب . حتى اضطروا (إسماعيل) إلى إنشاء محاكم تحكم بغير الشريعة الإسلامية .

إن الأوربيين اضطروا إلى انتزاع دراسة العلوم الكونية من أحضان الأديرة والكنائس ، لأنها لم تكن تسمح بالاعتراف بالحقائق التي يخيّل إليها أنهم تهديم تعاليمها ، بل كانت تدها في مهدها ، حتى جاءت الثورات الإصلاحية التي ألزمت الكنيسة حدودها ، وجعلت الناس يدخلون الكنيسة بعقل خاص ، ومعاهد العلوم بعقل آخر . ونحن المسلمون والله الحمد لم تحدث عندنا معارك وخصومات بين الفريقين تجعل العلاقات بينهما مستحيلة ، وليس في ديننا ما يخاف عليه من حقيقة كونية ، بل بالعكس ديننا يخدم بالعلم الطبيعي ، فلا يصح أن نفرد هذا بمعاهد خاصة وذاك بمعاهد أخرى ، بل الواجب أن يسير التعليم كله في مجرى واحد إلا في مرحلة التخصص .

وفي هذا تدارك سريع لحالة تخشى عواقبها على الدين والأخلاق ، وفيه توحيد وتوجيه لقلوب الشباب وعقولهم إلى مثل أعلى واحد ، وفيه تأكيد لذلك المعنى السامي العظيم : وهو أن الدين عندنا عقل وعلم ، والعلم عندنا دين وخلق . « وبعد » فإن عبء المسلمين فادح ، وحسابهم عسير أمام الله والحق والبرّ

بالإنسانية ، لأن إهمالهم إصلاح نفوسهم وتثقيفها وإعدادها بما في الإسلام لأداء رسالته العالمية ، هو الذي يجلب على الناس كل المشقات والمصائب والحيرة والضياع ، وهو الذي يخرج من حظيرة الإيمان كل عقل غربي كبير ، بما يقرؤه من المذاهب الفلسفية الشاردة ، وبما يلمسه من وجوه الخلاف بين قضايا العلم وبعض نصوص دينه .

ومن الغريب المؤسف أن القائلين على الشيوعية أو الفوضوية مثلاً يجاهدون في سبيلها جهاداً مستميتاً ينشرونها ويجعلوها دين الناس ويحسبون أنفسهم أصحاب رسالة يجب أن تتم وتشمل الأرض جميعها . . . بينما المسلمون الذين عندهم علاج كل نكبة في العقل أو في النفس أو في المال يجهلون مهمتهم ولا يؤدّون رسالتهم كما كان أجدادهم الأقدمون يؤدّونها ويموتون في سبيلها على ضفاف الكنج وأسوار الصين وشواطئ بحر الظلمات ، وهم يعتقدون أنهم يؤدّون إلى الناس أعظم خدمة وأكبر منّة تطيب بها نفوسهم عن اقتحام ديارهم وثل عروشهم وهدم أصنامهم الحسية والمعنوية ! .

إن إنسانية الشرق والغرب لا تزال حائرة ترسل روادها وأرصادها « للبحث عن غد » يشرق عليها ضحاه وهي في واحة السلام والطمأنينة . . . لا تزال « زنجية تبحث عن الله » ! . والمسلمون الذين أسعدهم الله بمعرفته وبالطمأنينة وبالشعور بالإخاء الإنساني لا يشعرون بتبعاتهم الثقيلة نحوها ، ولا يزالون يعيشون لأجسادهم وشهواتهم وحدها . . . بل إن الثقة بما عندهم قد ذهبت عنهم . وقاتل الله الجهل وحياة الفسولة والتفاهة ! .

حدود بين الله والإنسان والطبيعة

إني أدعو إلى ابتداء التفكير في الطبيعة وما وراء الطبيعة على ضوء التأمل فيما استطاعت قوى الخلق والمحاكاة والإنشاء المودعة في الإنسان أن تصنعه وأن تسخره ؛ لأن ما أنشأه الإنسان وما وصل إليه من أسرار الطبيعة جدير أن يغير منطق التجريدي القديم ونظرته للعلاقة بين الله والإنسان والطبيعة . ولكن ظلال التجريدات والفروض القديمة لا تزال تسيطر على عقول كثير من الباحثين الشرقيين في مسائل الوجود ، ولا يزالون خاضعين في تفكيرهم الديني والفلسفي لرجال المدرسة القديمة التي لم تتصل بأصول الثقافة العلمية الحديثة التي تلتقي أيدي العلماء فيها بيد الله وتأخذ منها أسرار الخلق والتكوين .

ولو أن العقل البشري الآن ، اصطنع ذلك الأسلوب الذي ندعو إليه ، وهو أسلوب تجديد النظر في الوجود على أساس أعمال الإنسان الحالية ، إذن ما وجد بعضه ضرورة إلى اعتناق مذهب (وحدة الوجود) الذي أخذ به كثير من العقول الصوفية والفلسفية القديمة والحديثة التي أوغلت في بحث قد أثبتت الحياة أنه لا طائل وراءه ، بل وراءه الهلاك والبلى والضياح والاختلاط فقد غزا هذا المذهب عقول بعض الفلاسفة والصوفيين الذين آفتهم أنهم طلبوا أن يدركوا الله وما وراء الطبيعة بالحواس التي يدركون بها الطبيعة ، وبالعقل البشري الخلق لإدراك النسب بين كائنات الطبيعة وحدها أولا . فلما عجزوا عن رؤيته تعالى وإدراكه — كما هو المنتظر — ذهبوا إلى أنه لا بد أن يكون الله هو هذا الوجود الظاهر والباطن كله ، وأنه يحل فيه ، وليس له

وجود منفصل عنه . . . وهكذا تجرد الوثنية التي حاربتها الأديان والفلسفات السامية ، سنداً عظيماً من هذه الفلسفة التي تعيش في ظلال هذا المذهب . . . وهكذا تتحول الطبيعة كلها إلى أصنام آلهة !
وهكذا تعود الحجارة والبقر والخنفسان والخنزير معبودات إلهية ! . . .
وهكذا يصير القاتل هو المقتول ، والسارق هو المسروق . . . ولا حدود بين الأضداد والمتناقضات . . .

وبدهى أن النظرة الأولى تهدي إلى أن الله غير الطبيعة وغير الإنسان ، وأن هناك انفصالا بين الخالق والخلق .

ولكن النظرة البديهية هذه كثيراً ما يطمسها التأمل الذي لا يقنع بالظاهر الواضح ، ولا يرضيه الوقوف عند ما يوحيه المنطق العملي ، بل يلذ له أن يلجأ إلى الفروض ويحاكم فكرة الله إليها . . . ولا شك أن هذا إيغال مهلك ليس وراءه إلا الضياع والبليلة .

وقد ذهبت بي نظراتي في النفس والوجود إلى أن الوقوف على سطح الوجود هو المنطق الذي لا نملك غيره ، مادامنا محدودين في أرض ضئيلة الحجم جداً بالنسبة إلى الوجود الأعظم الذي نرى منه بعض سطحه حين نسرح أبصارنا في السماء . . . فكل إيغال وراء ما يوحيه البدهية يكون وراء الشرود والجروح والبليلة . فالإحساس بانفصال النفس عن الكون ، وانفصال الله عن الكون تبعاً لذلك ، هو تلك النظرة البديهية التي لا نملك غيرها إن أردنا أن نسير مع المنطق العملي للحياة ، وأن نحل أكثر مشكلات الوجود ، وأن يطرد تقدمنا البشري ، وأن تُحدّد المسؤوليات والتبعات ، ولا تختلط الحدود ولا تسقط التكاليفات ، ولا تهترق قيم الأخلاق .

أما اعتناق مذهب (وحدة الوجود) فمعناه الاختلاط والتشويش والفوضى والتباس المقاصد وذهاب الاختيار بين الخير والشر .

وبديهي أن الحياة الاجتماعية وصلاحها هي الفاصل في الأمور الجدلية ، أو ينبغي أن تكون كذلك . والحياة الاجتماعية تأبى هذا المذهب كل الإباء ، ولا تحتمله لحظة ! لأنه أسرع أسباب انهيارها ودمارها ! فإن الإنسان سيكون بهذا المذهب إله نفسه ، لشعوره بأنه جزء من الخالق وسيكون الآلهة بعدد المخلوقات أو بعدد الناس على أقل تقدير !

وإن الحياة الحالية لم تحتمل شطط الإنسان وجبروته ومتابعة هواه ، وهو يعتقد أنه مخلوق تافه مسئول ، له خالق سيحاسبه حساباً عسيراً . . . فما بالكم به حين يعتقد في نفسه أنه إله أو جزء من الإله !

لقد ضرب الإنسان العالم بالأحقاد والمدمرات ، وأشعل الحياة وهو يشعر أنه طفل عاجز قاصر . . . فما بالكم به إذا حسب أن إرادة نفسه هي من إرادة الكون كله ؟ !

إن الأمر أعظم مما يتصور هؤلاء المفلسون المأفوكون ! وإن الحياة العقلية لم تقبل أن يكون للكون آلهة متعددة من العقلاء . . . فكيف بهم إذا كانوا مجانين ؟ !

هذا جدل يعتمد على النظر وتقليب المسألة أمام المنطق التجريدي الذي يصطنعه أصحاب المذهب ، ويعتمد أيضاً على التحاكم في هذه المسألة إلى المنطق العملي الذي توحيه الحياة الاجتماعية .

ولو كان الأمر مقصوداً على هذا الأسلوب لوجد أصحاب هذا المذهب مجالاً للمناقشة ورد القول وتشقيق الجدل ، وما كان طمعنا في إغاثهم إلا بقدر . .

ولكن عمدتنا في دحض هذا المذهب هي حجة بالغة من العلم الحديث صاحب المعجزات التي تخضع لها جميع أعناق البشر ، ولا يستطيع أن يمارى فيها الممارون من صنّاع الكلام وحاذق الجدل .

حجة يبعثها التأمل بيقظة في أسرار الأعمال الإنسانية العظيمة في الطبيعة : تلك الأعمال التي استحوّلت إلى آيات من آيات الكون ، يمر عليها الناس وهم عنها معرضون ، كما يفعلون مع آيات الله في الآفاق . . .

وهي تسلّط العقل البشرى « باللاسلكى » وتحكّمه به في الآلات وإدارتها ورصدها من بعد شاسع ، وانفصال تام بين العقل الإنسانى والآلة . . . فقد رأينا (ماركونى) يضىء مكاناً في استراليا وهو في أوروبا . . . ورأينا الدبابات تزحف والطائرات تطير وتحارب وليس فيها سائقون . . . وإنما يديرونها ويتحكمون في تحريكها من بعد .

ورأينا « الرادار » تلك العين والأذن السحرية العجيبة التي تلتقى ويلتقى الإنسان بوساطتها بالأحجام على مئات وآلاف من الأميال ، مع أنها في العبد الباك من اكتشافها والانتفاع بها ، وقد انتفعت بها إنجلترا في مقاومة الغارات الألمانية في (معركة إنجلترا) .

ورأينا أن ما يحدث لتلك الآلات ينتقل إلى ذهن الإنسان الراصد لها في لحظة ؛ فهو معها بعلمه وقدرته وإرادته ، يصرفها كيف شاء ، مع الانفصال التام والبعد الشاسع بينه وبينها . وهو يكوّننها ويركّبها ويجعل فيها عقلا وروحاً تحركها وتصرفها . وما دام قد أعطاهما قوانينها فلا لزوم لوجوده فيها والمكث بجانبها أو الحلول بها .

أفلا تقاس على هذا الأساس علاقة الله بالكائنات ؟ وتُحلّ بذلك تلك المشكلة التي خلقتها عقول من لم يروا لهم سبيلا غير اعتناق مذهب وحدة

الوجود ؟ بلى ! فإن ما يقدر عليه الله لا يذكر بجانبه ما يقدر عليه هذا الإنسان الضئيل العاجز . ولا شك أن من كمال الإنسان أن يقدر على التصرف في « مخلوقاته » من بعد ، وأن يرصدها ويرقبها ويوجه إرادته إليها وهو متحرر منها منفصل عنها لا يشعر بضرورة الاتصال بها والتقييد بحيزها الضيق فأولى رب الكمال المطلق والقدرة المطلقة والإرادة القاهرة أن لا يكون عليه شيء ساطان وألا يتقيد بقيد . « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ! » وفي ذلك آية حديثة يرسلها الله من التأمل في أسرار الإنسان ووحى أعماله في الأرض .

لقد أقام الله من الإنسان دليلاً ووسيلة لحل كثير من العقيد والمشكلات الفكرية في تصور الإلهية ، وخلق صورة مقرّبة لبعض شئونه الجليلة التي يتعجل المتعجلون في الحكم عليها بعقلهم القاصر ، وفي مدى عمرهم المحدود الذي لا يقاس إلى الأبد الكبير الذي يُظهِرُ الله فيه شئون الخلق والأمر في أدوارها وأوانها الموزون المقدور و « ولا يعجل لعجلة أحدكم » كما قال « محمد » سيد الأصفياء العارفين بشئون الله ! .

إن الحياة لم تنفقه ولم يبد أنها تقرب من نهايتها التي تتضح بها غاياتها وتنضج ثمراتها ، فلا يليق بالفيلسوف أن يحكم حكمه النهائي عليها قبل انكشاف غاياتها . وأولى به أن يرصد الأدلة التي تكشف عنها الأيام وتضعها على طريق الأحياء يوماً فيوماً ؛ لترشد السالكين وتشير لهم إلى الأمام .

ومنذ أن اهتدى الإنسان إلى وجود القوة التي يظهر أنها « مادة » الطبيعة الأولى ، وهي الكهرباء ، وبعد أن شرع يدس يده وفكره في هذه القوة الخفية ، ويستخدمها ويحرك بها ما يشككه من المادة ، ومنذ أن ظن أنه سيصل إلى أن يكتشف هذه القوة بدرجات مختلفة تحت ضغوط معينة ، ليخلق

منها العناصر المادية المتبلورة الثلاثة والتسعين . . . منذ ذلك كله ، ينبغي
للفكرين التجريديين أن يتربصوا أفعاله وكشوفه لينبؤا عليها أحكامهم
ومنطقتهم ، وأن يقتصدوا في تلك الفلسفات الفرضية والشطحات الصوفية التي
لأنهاية لها ، لأنها « ذاتية » وليست « موضوعية » موضوعها ذلك الكون
المادى العجيب الذى استمددنا منه عقولنا وأحكامنا ، وأن ينادوا معنا إلى
(الصوفية المادية) التي تعجب وتعبد بالفكر فى الطبيعة الظاهرة وأعمال الله
وأعمال الإنسان فيها ، وتتعلق بالمحسوس قبل التعلق بغيره ، حتى تفرغ منه
قبل نهاية رحلتها على الأرض ، ثم تلتفت — إن قدر لها البقاء على الأرض
بعد هذا الدور — إلى ما وراء الطبيعة لتبحث فيه وتحكم عليه . . .

وإنى ما أنكرت أن يكون لهذا المذهب تاريخ طويل ومعتنقون
كثيرون من الفلاسفة والصوفية القدماء والمحدثين ، وما أطلقت القول فى نقضه
بغير حجة أو برهان ، وإنما سقت ما اهتديت إليه واعتقدته دليلاً حديثاً
كافياً فى دحض هذا المذهب . وسواء على بعد ذلك أكان (محيى الدين
ابن عربى) (وسبينوزا) (وهيجل) وغيرهم من معتنقيه أم من مخالفيه . فمن شاء
فليأخذ هذا الدليل الذى سقته من حقائق الحياة العلمية الحاضرة ويستأنس به
فى بحث العلاقة بين الله والكون ويرفض على ضوءه مذهب الوحدة ،
ومن شاء فليتركه على شرط أن يأتى هو بدليل .

ومن الواجب أن أذكر أننى كنت أثناء التفكير فى (أومن بالإنسان)
يحوم فكرى كثيراً حول مذهب الوحدة ، ويكاد يقبل عليه تحت ضغط
الإعجاب والتقدير للروح البشرى الخالق والجهد العلمى والعملى الأخير

الذى سلك الإنسان فى عداد قوى الخلق والتكوين والإنشاء التى يدير الله بها الكون . المادى فى الأرض . . . فلم يكن من المستبعد فى الوهم حينئذ أن أتلقى بفكرى إلى الأخذ بهذا المذهب الذى يجعل الإنسان جزءاً من الخالق الأعظم ومظهراً للوجود الكلى قائماً به .

ولكن هذا الدليل قضى فى نفسى على بوادر التفكير والتوجه إلى هذا المذهب الذى لا يكاد معتقه يتماسك أمام نفسه وأمام الكون قلقاً وحيرة حين يختلط فى فكره شعوره بأنه جزء من الخالق ، وشعوره بأنه مخلوق عاجز ، وحين ييأس من أن يرى الله بنفسه مع أنه جزء منه ، وحين يظل فكره دائراً حائراً فى متاهات السموات والأرض يبحث عن « مصدره الأول » فلا يراه إلا فى المظاهر المادية التى كان يراها نفس الرؤية قبل اختلاطه وشعوره بازدياد واج الشخصية بين خالق ومخلوق وخالد وفان . حينئذ يبتدىء يشد لنفسه ويغتنى على هواها باعتبارها جزءاً من الله ، كالحلاج وابن عربى . وهنا ابتداء التجديف و « الجنون الدينى » والبيان الملتبس الذى تختل فيه مقاييس المنطق الإنسانى ، لأنه يصير خليطاً من منطق الخالق المتوهم والمخلوق الواهم . . .

ومذاهب الحلول والاتحاد والوحدة غالباً يكون اللجوء إليها بعد الإعياء فى البحث عن الله ، وابتغاء رؤيته ، والاقتراب منه ، والأخذ عنه مباشرة . وما ينبغى لأفكارنا المحدودة العاجزة الرهينة المسجونة فى أقفاص الأرض الضئيلة بالنسبة للكون أن تطلب هذا المطلب الأعلى الذى لا تدركه الأبصار والأفكار ولا يعلم قدره غيره . وقد قال محمد سيد العارفين : « إن الله احتجب عن الأنظار ، وإن الملائكة الأعلى ليطالبونه كما تطلبونه » .

والنظرة الأولى الفطرية الساذجة ترى انفصال النفس عن الطبيعة وانفصال الله عن الجميع ، لأنها أول درجات الفكر في الطبيعة ومصدرها . ثم بعد ذلك يتبدى الفكر الفلسفي الذي يشك في كل شيء ، ويطلب مبدأ كل شيء ، يحيل هذا البديهي إلى شيء معقد . فيطلب مصدر الطبيعة : فتارة يقول إنه لا مصدر لها ، بل هي مصدر نفسها ، وتارة يقول إن مصدرها ممتزج بها ، وتارة يقول إن مصدرها منفصل عنها . ولذلك أكرر القول بأن النظرة الأولى تهدي إلى منطق الانفصال ، ثم يأتي التأمل الذي لا يقنع بالظاهر الواضح فيطمس هذه النظرة ، ويوغل فيما وراء سطح الوجود ، ويلتبس عليه كثير من البديهي فلا يرى بدايته ، بل يطلب له الأدلة والبراهين .

وحقاً يتحول كل بديهي إلى غير بديهي حين يوغل الفكر فيه ويتعمقه ، ألا ترى أن بعض المدارس الفلسفية تزعم أن حقائق الأشياء غير ثابتة ، وأن المحسوس لا يجوز اتخاذه أساساً ، وأن الموجودات كلها أوهام ، وأنه ليس في الكون كله حقيقة ثابتة ؟ حتى لقد قال بعضهم « لو وجدت حقيقة ثابتة واحدة لاتخذتها أساساً أبني عليه جميع الحقائق ! » ألم تسمع بالنظرية الجديدة التي تبطل « السببية » ، وتقول إن الكون يسير بالاحتمالات التي لا نهاية لها ! ألم تسمع بذلك السفسطائي اليوناني الذي أنكر وجود جدار أمامه وقال إنه وهم من الأوهام ، فلما تحداه مناظره أن يقوم ويخترقه إن كان زعمه صحيحاً ، قام وجري إليه حتى اصطدم به ، فكانت النتيجة ارتطام جسمه وتمزق أوصاله .. إن الفكر البشري كائن عجيب متمرد ، له قدرة هائلة على الذهاب في أي اتجاه ، وخلق عوالم صناعية وخيالية لا وجود لها . وصخرة النجاة أمامه هي الاستمسك بالعيش على سطح الحياة ، وأخذ الحياة بدون تعمق وتعقيد لما تحت البديهي السطحي حتى يبقى لنا شيء ثابت نرتكز عليه . إنما يباح لنا فقط

إدمان التعجب مما ترى، وتقليب أفكارنا وأيدينا فيه بقدر ما نستطيع أن نسخره
ونستغله وننتغل به عليه، حتى لا تهددنا عوامل الشقاء والفناء .

وقد ظل الناس خاضعين لفلسفة الفروض والتجريدات، يدورون فيها
دوراً عقيماً، حتى أتى دور الفلسفة التجريبية التي نادى بها (فرنسيس بيكون)
ودور الفلسفة الإثباتية التي ثبت قواعدها (ديكارت) فكانت النتائج الباهرة
في العلوم والمعارف الطبيعية والنفسية التي فتحت على الناس بركات من السماء
والأرض، وما تزال تفتح . وقد أقبلت البشرية على هذا الاتجاه العلمي الإثباتي
فعاشت به عيشة رحية زادت ثقتها في نفسها وحياتها، وفتحت عليها كنوز
الآمال السعيدة واستدبرت عالم الفروض الفلسفية والخيالات والشك فيما لا طائل
وراء الشك فيه، ولا قدرة على الاستغناء عنه، واتخذت بدهيات الحس والفكر
قواعد ارتكاز، فثبتت أقدامها على الطريق إلى الله . . ووجدت وحدة منطقها
وجودها تتحقق في هذا الطريق .

* * *

ويجب أن نتخذ الطريقة (الموضوعية) في بحث المسائل الدينية كما نتخذها
في المسائل العلمية؛ ولا يجوز أن نصطنع الطريقة (الذاتية) إلا في (الفن) و(وحدة).
إن مجال العلم هو البحث في الكون المادي فيما يستطيع أن يصل إليه
أدواته المعروفة ليصل من وراء ذلك إلى (القوانين) التي تفسر بها الطبيعة
فيرضى كفاية (الإثبات) في النفس البشرية . وليستطيع أن (يعتمد) على هذه
القوانين كحقائق لا تتبدل ولا تتغير . ويرضى في النفس كفاية (الاختيار
والحرية) بين القوى المادية العمياء الجامدة المجبورة .

والمجال الأصلي للدين هو نفس مجال العلم، هو الكون المادي أيضاً،
ولكن لا على الاعتبار السابق؛ ولكن على اعتبار آخر هو استنتاج (صفات)

صانع هذا الكون من الكون : ليرضى في النفس كفاية (الاعتقاد) وهذه هي الفكرة الأصلية في الدين . فكرة الاعتقاد بصانع لهذا الكون ، له من العلم والقدرة والإحاطة بكل دقيق وجليل ، ما ظهرت آثاره ، وما وضح في قوانينه من الدقة والإحكام وعدم التناقض .

والذى لا شك فيه عند العقول الموزونة التى لم تنحرف ولم تشذ عن الفطرة : أن الإحكام والدقة والجلال والجمال والتنويع والتفريع والاطراد وغيرها من صفات الكون ، توحى وتُلزم كل عقل غير مدخول أن وراء هذا الكون عقلاً أعظم منه يدبره ويقوم عليه . له من العلم والقدرة والحكمة والإحاطة والهيمنة والقهر وغيرها من صفات الكمال ما يليق بالقوامة والتدبير لهذا الكون الرحب الذى لا تدرك نهايته الأوهام البشرية . هذه هي الفكرة الأولى في الدين وهي فكرة لا شك (موضوعية) موضوعها الكون كله ليستنتج الناس منه صفات خالقه . وهي صفات لا تختلف باختلاف جمهرة العقول .

إن الدين بهذا الوضع (نتيجة) حتمية للعلم وضرورة لازمة (للأنفة) العقلية التى لا بد منها في العقل العلى . ورجال الدين بهذا الوضع هم رجال العلم الطبيعي وحدهم ، لا غيرهم من صناع الفروض والأوهام المفتونين بزخرف الكلام يرسلونه فارغاً إلا من نزعات شعرية وبدوات خيالية .

ورجل العلم لا يبحث في ذات الله وكُنْهها ، لأن الطريقة العلمية عودته أن يتدرج في أبجدية الحقائق ، وهو الآن ، ولماً بعد الآن بكثير من الآباد ، لم يفرغ من إدراك موجودات الطبيعة المحدودة في الأرض الضئيلة ، ولم يدرك الروح الإنسانى ، ولا أصل الحياة البيولوجية ، بل لم يدرك المادة ، حتى إن « ملكن » أكبر علماء الكهرباء المعاصرين قال : « خبرونى ما هي المادة أخبركم ما هي الروح » .

ولذلك ينبغي لملتزمين التجريديين ألا يسرفوا على أنفسهم وعلى الكون كله ، فيحاولوا إدراك ذات الله قبل أن يدركوا ذات أنفسهم وذوات الأشياء ، شاذية الضئيلة المحيطة بهم .

إن الإنسانية إن قدر لها أن تدرك شيئاً من كل أولئك فلن يكون هذا الإدراك إلا عن طريق العلم الذى فُتحت أبوابه ، وأقبلت حقائقه التى سوف تكون المنطق الإنسانى الحديث الذى لا يقيم وزناً للتأمل الفلسفى أو الصوفى أو الشعرى الشارد الجامح ! .

ولا خشية من أن يجرّنا قياس اتصال الله بالكون على اتصال العقل الإنسانى بالآلات وإحاطته بها عن طريق اللاسلكى وإدراكه إياها من بُعد ، إلى التورط فى التجسيم والتشبيه .

فهذا الدليل الذى سقته لا يستنزم شيئاً من هذا ، فليس اتصال الله بنا وبالكون بالآلات وروايد ، كما هو الحال فى اتصال الإنسان بالآلات والآفاق باللاسلكى ، وإنما هو اتصال مباشر بالعالم المحيط والقدرة التى لا تحتاج إلى وسائط وأدوات . . . واللاسلكى فى معرض هذا الاستدلال ليس إلا مثلاً مضروباً يوضح لتلك العقول التى لم تر لها طريقاً لتصور كيفية اتصال الله تعالى بالكون ، إلا الإيمان بوحدة الوجود وعدم الانفصال بين الله والطبيعة ؛ إذ أن خيالها ضاق عن تصور هذا الانفصال .

وخلاصة هذا الدليل أننا إذا كنا نرى العقل البشرى العاجز يتصل بمخلوقاته من الآلات بعد أن كوّنوها وأعطاهها قوانينها ، ويتصرف فيها ويتحكم بها باللاسلكى وهو متحرر منها بعيد عنها غير ممتزج بها ؛ فما بالناس لا نرى العقل

الأعظم الذى نعرف قدرته ، يستطيع أن يتصل بنا بعلمه وقدرته بدون حاجة إلى الاتحاد والامتزاج ؟ ! .

وما ندرى ماذا يأتينا به العلم من وسائط الاتصال ؟ لعله يجعلنا نتصل بالأشياء ونؤثر فيها بدون حاجة إلى وسائط اللاسلكى وغير اللاسلكى . لعله يكشف فى النفس قوة قادرة على ذلك . وهذا لا شك كمال لنا ، وليس بمستحيل فرضه عقلا . . .

فقيح بنا أن يضيق تفكيرنا حتى نتصور خضوع رب الكون لما نستطيع نحن العجزة الضعفاء أن نتحرر منه ونستغنى عنه ! .

إننا نحس فى أنفسنا قدرة على الخلق والتحرر وتنقيح الطبيعة ، فلماذا نفرض الله تعالى شبهه سجين فيها لا يستطيع من قوانينها فكاً ، مع أنه واضع هذه القوانين ، إذ لا جائز أن تكون وضعت نفسها ؟ ! .

إن أحلام الحرمان التى تطوف برءوس العجزة المحرومين لا يرضيها من القدرة والغنى إلا أن تأمر بالطعام ، فيكون الطعام ، وببساط الريح فيكون البساط ، وبحكّ (خاتم) فيحضر المارد القدير ، وبنظرة فى (البلاورة السحرية) فترى ما استتر واستكنّ فى طوايا السموات والأرض ! .

فإذا كان هذا هو ما فى خيال الناس عن قدرة القادرين من العجزة المخلوقين ، فكيف بما فى الخيال حين يتصل بالله الذى يمسك السموات ويحبس البحار ويدير ملايين الملايين من الكواكب فى أفلاكها بغير اختلال وصدام ، ويؤلف بين القوانين المتضادة فى الطبيعة حتى يُخرج منها «هرمونى» وتناسقاً عجيباً !!

إذن فلا تجسم ولا تشبيه ولا تخابر ولا معامل كيمياء وفيزياء ولا نظارات

ولا قارورات ولا اتصالاً بسيطاً أو غليظاً ، وإنما هي إرادة عالمة قادرة تقول
نمعدوم « كن » فيكون ! .

تقدحى القرآن الكريم أن إبراهيم عليه السلام سأل الله : « رَبِّ
أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ! » قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ
قُلُوبِي . قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ — اذبحهن وقطعهن —
ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا » وقد
فعل إبراهيم فاتته ساعة من غير أن يرى شيئاً يجمعها ويركب أعضائها
ويهندس وضعها ! .

لقد توهم إبراهيم أن هناك « كيفية » للإحياء ، وأن هناك أدوات
ووسائل للخلق والتكوين ، ولذلك سأل ربه سؤاله . ولكن تبين له بعد
أن دعا أشلاء الطير المذبوحة المطروحة في كل أفق فإذا به أمامه حية ، أن إيجاد
الله الأشياء ليس إلا بتوجيه الإرادة إليها ، فإذا هي كائنة .

النُّبُوَّةُ وَالْوَحْيُ وَالْمُعْجَزَةُ

هل كانت حياة الإنسان العقلية والروحية الأولى تسمح أن يتركه الله من غير أن يتصل به ويرشده ، ويبين له بعض ما خفى عليه ، وخاصة إذا كان هذا الخفاء حول أهم غاية في الحياة العقلية والروحية ؟

هل يجوز أن يستمر الكون كله صامتاً أمام الإنسان لا يكلمه فيه أحد بكلمة غير إنسانية ؟

أيمر كل الناس هكذا على الدنيا سائرين إلى القبور وأبواب الغاية المجهولة من غير أن يسمعوا حديثاً إلهياً عما وراء الحياة ؟

هل يجوز عقلياً ووجدانياً أن يحتجب ربنا عنا ، من أول إنسان فينا إلى آخر إنسان ، هذا الاحتجاب القاتل ؟ !

أيمكن أن يكون هذا من إله نرى رحمته وسعت كل شيء ، وأعطت كل كائن بحسب وسعته ؟ وأليس من مطالب العقل أن يتحدث مع الله مباشرة وأن يراه إن أمكن ؟

أيمكن أن أوجدنا لنثبتته بمنطق عقولنا فيقتلنا هو بشوق قلوبنا إليه شوقاً لا أمل وراءه في رؤية أو حديث ؟ !

أكان من الممكن أن يستقل عقل الإنسان في طفولته المنحطة بالاهتداء إلى الحق الفاصل في قضايا الوجود وما بعد الطبيعة ؟

ماذا يُعْنِي العقل وحده وماذا يُرشد إزاء هذه الألغاز والمعتميات التي رآها الإنسان في دور طفولته ؟ إنه لا يزال غير مغْنٍ ولا نافع عند كثير من الناس

حتى في زمن العلم والسيطرة على الطبيعة : فكيف يغنى في زمن الكهوف
والأخراج والغابات ؟

أجل إن العقل الكامل نفسه يشعر أنه في أشد الحاجة إلى أن يقول له
قائل من غير نفسه : إن مقاييسك على حق ، وأنتك لست وحدك الذي ترى
الخير خيراً والشر شراً ، بل إن الكون كله معك في هذا الرأي ، وإن للكون
غايات كريمة . وذلك لا يكون إلا عند طريق الوحي الذي يأتي من العالم الأعلى
وإلا فسيجد نفسه وحيداً فريداً بوصفه أداة حُكم ، وسيضطر من لم يعتقد
بأنوحي أن يقول : إن النظام والحق والخير وما إلى ذلك كلها اعتبارات بشرية ،
خلقها فكر الإنسان ، وليس لها إلى (عقل الكون) نسب ، بل ليس هناك
عقل ولا ضمير للكون ، لأنهما من مخترعات العقل البشري . وحينئذ تكون
الخيرة القاتلة : حيرة الإنكار التي هي أشد سوءاً وبليلة من حيرة الإثبات ،
إن كان في الإثبات حيرة . . .

فكيف يغنى العقل في زمن الجهل المطلق بالنفس وبالطبيعة ، وفي زمن
عبادة الأحجار والأبقار والثعابين والجعلان والخنفسان ؟

وماذا كان العقل في تلك الأزمان ؛ إنه لم يكن سوى انطباعات بسيطة
من تجارب الحياة المحدودة التي كان الإنسان يحياها ، فكيف يقدر أن يستقل
مر البت في أمر الإلهية وصفاتها وكمالاتها ؟

إن الطفل لا يدرك في أول أمره من أمه غير نديها وهي تلقمه إياه . . .
ثم ينكشف له جسمها ومعناها عضواً عضواً وشأناً شأنًا حتى يدركها كاملة . . .
ولو تركته منذ ولادته لمات جوعاً ولذهب وجوده ولم يدركها . وكذلك الإلهية
مع الإنسان ، والله المثل الأعلى ..

هل يمكن أن ينشأ طفل كامل من غير أم أو من في معناها ، تقول له قولا ،
المعروف وترعاه حتى يصل إلى سن الرشد فيستطيع أن يستقل بأمره بنفسه ؟
أنا لا أستطيع أن أتصور الإنسان الذي هو أكرم ما في الأرض يعيش
هكذا وحده ، وخصوصاً في عصور طفولته ، من غير أن يقول له قائل من
وراء الغيب كلمة التوجيه والتسديد .

ولو كنا نرى نوعاً آخر محترماً يعمر الأرض ، ويتولى الخلافة عليها
ويسخرها لقلنا : اعمل هذا هو المقصود بالخلق ونحن نعيش على الهامش . . .
ولكننا لم نر سوانا خليفة يصح أن يكون مقصوداً بالخلق . . . فكيف يقصد
وجودنا الخالق ، ثم يتركنا من البدء للنهاية من غير كلمة !

كلا ! إن يثبت العقل على رأى ثابت في « الله » إلا إذا سمع صوتاً منه . . .
وإلا فمن الحكم بين العقول المختلفة ؟

كلا ! لم يكن الإنسان الأول ليؤمن بأنه شيء ذو خطر في الوجود إلا إذا
قيل له ذلك من غير عالمه . . .

كلا ! إن يصبر الإنسان على احتمال الحياة بلذاتها وآلامها من غير أن
يسمع من يقول : احن ، واعمل ، واصبر . . .

الإنسان ! ما الإنسان ؟ إنه كل شيء في الأرض أمام نفسه وأمام الوجود
الظاهر ، فكيف يُهمل ويترك سدى من غير نداء خفي بعيد ؟ !

إن الإنسان نفسه كبير الرحمة في بعض أفراد الذين لا يستطيعون سماع
استغاثة حيّ دون أن يبكوا رحمة له ، ويقولوا له : لبيك لبيك . . . فما بال
الرحمن الذي ثبتت رحمته ثبوتاً محسوساً ، تنظر إليه عقول عباده الباكين
الدائمي البكاء له ، السائرين في ظلام الحياة وآلامها ، اليقطين لكل فكر
وحس وحركة في الوجود ، الحاملين آلامهم على ظهورهم وأرواحهم على

أكفهم ، الحائرين بين مذاهب الأفكار واتجاهات الطباع واختلافات
الميول يقولون له : رب الحياة ! قل لنا كلمة واحدة : ما هو الحق ؟ قل لنا
صوت منك أو بلمحة أو بحجة قاطعة ، حتى نجزم به حزم الحس مع جزم
العقل

إن جزم العقل وحده في هذه المسألة الكبرى لا يدخل الطمأنينة الكاملة
التي لا بد منها في حياة الإيمان يا مولانا ! فكشف لنا الحجاب ، واهتك
الأسرار ، وأرنا ما وراء هذه الكثافات والأجرام والأحجام . . . أقول
ما بال الرحمن لا يسمع دعاء ممثلي الإنسانية الخائرة المقتولة بالشوق والشك ،
المصروفة بالإفك ، فيقول لها بين فترة وأخرى كلمة فاصلة يشير لها بها إلى
الطريق ، مادامت هي القطيع المقصود ، وما دام الاهتداء إلى الله هو المعنى
الذي يصح أن يكون غاية الله من خلق الإنسان ؟

هكذا وقف كل نبي نشأ في حيرة من ضلال قومه قبل أن تتصل به
شرارة الوحي ، لا يرى نوراً ولا يسمع شيئاً يقول له : من هنا الطريق . . .
هكذا وقف كل نبي في الظلمات وبكى . . . بكى لكل شيء . . . بكى
للسماء والأرض والحجر والنجم والحي والميت . . .

فإذا كان منطق الإنسان الكامل ورحمته يَحْتِمَانُ أن مثل هذا الباحث
الحائر الباكي ، يجب أن يُرْحَمَ ويخاطب ويغاث من لهفته ، وخصوصاً إذا
احتاجت الظروف لحركة تطهير الأرض من ضلال وفساد ، فأظن ظناً يقرب
جداً من العلم أن هذا المنطق وتلك الرحمة يقولان : لا بد لله أن يتكلم ! أجل
يحكم أن على رب الوجود أن يكلم ذلك الرجل الحائر الباكي لعدم الاهتداء إلى
حقيقة نفسه وحقيقة الوجود . . . وأن يحمل إنسان عبء النبوة والرسالة
القادح إلا إذا سمع هذه الكلمة . . . ولن يتحدث باسم رب الوجود ويقول :

« أوحى إلى » إلا إذا سمع حديث الله له . . . وإلا كان أكبر مجرم ظالم كاذب ، والكاذب لا يستطيع أن يبنى بيتاً كما يقول « كارليل » فلا يستطيع أن يبنى أمة . . . « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ، أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ . . . »

تلك هي النبوة ! أوقن بها كما أوقن بسنن الطبيعة المطردة ، وأنزع حججها من صميم النفس الإنسانية ، منطقها ووجدانها وأحاسيسها . فكما أؤمن بأن الشمس يجب أن تظهر للنبات والحيوان لكي تعطيهما وجودهما الجسماني ، أؤمن بأن الله أظهر للإنسان جانباً من نوره حتى يأخذ وجوده الروحي ، وذلك كان في أول النشأة ودور الطفولة البشرية .

إننا الآن نرضى بصمت الطبيعة المطبق اتسكالا على أن الله كلم بعض أفراد النوع في الزمان القديم . وأنا شخصياً أظن أنني ما كنت لأؤمن بفكرة ثابتة عن الدين لو لم أوقن بأن الله كلم محمداً ومن حكى عنهم محمد من الأنبياء . وكأني أحس أن الله كلمني شخصياً حين كلم بعض أفراد نوعي !!

أجل ! كيف أثبت على الإيمان به دائماً ، مادام هو لم يأت به لي ولا لنوعي ؟ أمن المعقول أن ينظر الإنسان إلى الله دائماً ولا يبالي هو به ؟

إن الله رحمة . . . إن الله محبة . . . إن الله كرم . . . إن الله كمال . . . كما تثبت ذلك صناعته في الخليقة فلا يجوز أن يكون متكبراً على الإنسان خليفة الأرض إلى هذا الحد !

« وما قدرُوا اللَّهَ حَقَّ قدره إذ قالوا ما أنزل اللَّهُ على بشرٍ من شيء » فالنبوة كمال من كالات الله كما يقرر القرآن في هذه الآية . ولا يعرف قدر الله حق قدره من ينكرها .

إننا الآن في زمن رشد عقلى يلوح لنا معه أننا نستطيع أن نستقل بحقولنا في الاهتداء إلى الله وإلى الخير . ولكن يجب أن نتذكر حالة النشأة والطفولة التى كنا عليها . . . حين كنا نعيش بالأوهام والأحلام ، ونرى الكون أمامنا كتلة مبهمه ، ومجموعة ألغاز ومعميات وأحاج . . . حين كنا نعبد الحجر والبقر والجعلان . . . حين كان العالم مملوءاً أمامنا بالأشباح التى تملأ الهواء والنار والسحاب والبحار . فهل كانت غاية خلق الإنسان متحققة فى تلك الدهور والأحقاب بالعقل الإنسانى على بساطته ؟ ومادامت غاية خلق الإنسان كما يحتملها العقل هى معرفة الخالق وعبادته ، فلا بد أن تتحقق دائماً ، وقصور عقل الإنسان فى الماضى ما كان يسمح بتحققها ، فلا بد أن يتولى الله إرشاده عن طريق الاتصال ببعض أفراده .

إن الفكر المادى يوحى بالأنانية وحب الحرص على الحياة ، ويقدم المصلحة الشخصية قبل أى شىء آخر ، فلن يؤثر على نفسه ولن يخفيها فى سبيل غيره . . . ولكن الفكر الروحى المطبوع على الإيمان والتفكير فى مصالح الغير وحمل أعباء الإنسانية هو الذى يشعر بأنه لابد أن يبذل من نفسه لبناء الحياة .. هو كقلب الأمومة بالنسبة لأولادها تفنى لهم وتستغرق فيهم . والفكر المادى والفلسفة العقلية المستندة إلى القضايا المادية لم تفلح فى قيادة الناس ، وإنما أفلح الفكر الدينى ، لأنه استند إلى ما وراء الحياة الطبيعية ولم يأخذ طريقه فى جهاد الوثنية كطريق فلاسفة الإغريق ، قضية نظرية وجدلاً مدرسياً أو [أكاديمياً] ، وإنما أخذه عن طريق التبتل الروحى والسلوك والجهاد والبساطة . وجهاد النبوات فى سبيل توسيع آفاق العقل البشرى بتوسيع تصور معنى الإلهية وتجردها من المادة والصورة ومخالفتها لكائنات الأرض ؛ جهاد

عقل عظيم لم تصل إليه الفلسفات ، لأنها لم تكن بتكليف وإيمان وسماع صوت من العالم الأعلى .

وهنا ظاهرة واضحة : وهي أن جميع الذين حاربوا الوثنية والتجسيم وبذلوا لذلك الدماء لم يكن أحد منهم من الفلاسفة والعقليين الماديين ، بل كانوا جميعاً من البكائين العابدين المجاهدين بالسلوك والدعوة . ولقد اختلفت الفلسفة اليونانية حقاً طويلاً ، ولكن الأديان لم تختلف واحدة إلا لتحل محلها أختها . والذي يتصفح القرآن وقصص الأنبياء يعجب من الأساليب المختلفة التي دعا بها كل رسول قومه بجهاده وثورته وصبره وتحمله الأذى . ولم يقتصر على عرض قضايا دينه العقلية بدون ثورة بها . وهل أفادت الفلسفة اليونانية العقل الإنساني العام بإنقاذه من الوثنية ؟ كلا . ولو سيطرت هي على العالم لظلت الوثنيات في الدين تجارى المعلومات المادية والتقدم الحضارى . وأكثر من هذا كانت الوثنية سبباً في الإضرار بالمسيحية ، لأن بعض المبشرين بها اضطروا للتبشير بالتمثيل ، لأن العقل اليونانى ما كان يقبل الوحدة في الألوهية ، وهو الذى جعل لكل قوة من قوى الطبيعة إلهاً . ولا تزال كلمة « الآلهة » تشيع في الأدب الأوروبى وتسيطر على عقلية الغربيين على العموم . وقد كان العقليون ولا يزالون باردين هادئين ، لا يؤمنون بما يقولون إيماناً يحملهم على الجهاد له ، والقضاء فى سبيله ، والثورة به ، يكتفون برصد الظواهر وتسطيرها فى الصحف ، أو تعليم بعض التلاميذ .

ومن قرأ صور الإله فى أفكار كثير من فلاسفة اليونان ، من العدد ، إلى الماء ، إلى العقول السبعة ، إلى النار ، إلى آخر الفروض ، يرى أن محاولات العقل المادى حتى فى بلاد اليونان لم تقدم الصورة الكاملة للإله كما قدمتها النبوة ؛ فقد بحثت عن الله فى نفسها وفيما حولها ووقفت تبكى له ، وصهرتها الآلام

وأضناها الإخلاص له ، إخلاص الطفل حين يبحث عن أمه ويبيكي ، فظهر لها فعرفته وأيقنت بالحق والخير .

وقد نجحت النبوة في إنقاذ كثير من البشرية من الوثنية ، وفي إعلاء شأن الإنسان ، وفي تعميم صورة الكمال الإلهي ، وفي سيادة الأرض ، فلا يمكن بعد ذلك كله أن نقول إن النبوة كانت عفواً ومصادفة ، ولا يمكن أن تكون حركة الماديين موازية لتلك الحركة الروحية ، وخصوصاً أيام كانت حركة العقل المادى ضئيلة لا تستطيع أن تقيم قوانين وأخلاقاً ، فلا بد أن يكون وراء النبوة سند من عالم الغيب .

لا يمكن أن يستأنف الإنسان عبادة الأحجار والأشجار وغيرها بعد أن وصل إلى التسلط على كثير من قوى الطبيعة ، وبعد أن زال خوفه من قواها ثم أسرار تركيبها .

ولذلك ختم الله الرسالة بمحمد ، وأعطى الإنسان الطبيعة يسخرها ويتصرف فيها بالتدريج ، كما يعطى الأب ابنه ماله بعد الرشد يتصرف فيه بعلمه وسلطته .

حقاً هو قانون الأبوة مع النبوة ، فهو إطاراد في سنن الكون . والطبيعة كلها متشابهة . النشأة العقلية العامة في مجموع الإنسان كالنشأة العقلية في أفراد .

لقد استخلص الله خلاصة الحق من تجارب الحياة الإنسانية في جميع الأمم وأسماها للإنسان ، ووصاه وصيته الأخيرة وقال له : بلغت الرشد ؛ فأمامك الطبيعة ، وإلى اللقاء في الدار الثانية التي يحكم بها عقلك وعلمك ؛ فاستعد لتقدم إلى الحساب عما تفعل في النفس والمادة وقواها .

أليس هذا هو قانون الطبيعة مع أفراد الحيوان والإنسان ، ومع أسرهما ؟
إنه هو نفسه بشكل أوسع بين الله والمجموع الإنساني .

قد يقول قائل : إن الوثنية لا تزال دين عدد هائل من الناس ، ولا يزال
أكثر سكان إفريقيا الوسطى وجزر المحيط والصين والهند واليابان يدينون
بالوثنية وبالقوى السحرية وعبادة الحيوان ، فأين رشد الإنسان المزعوم ؟ ! .

ومع تسليمنا بذلك نقول : إن التبعية ملقاة على عاتق الأمم المتعبدية بالنبوت ،
وإنه لتقصير فظيع منها أن تترك بعض أفراد الأسرة الإنسانية هكذا ضائعين
من الحياة ، ولو كان الاستعمار يحمل غاية روحية سامية ، لجعل همهم الأول هدم
الوثنية وتعميم فكرة الوحدة الإلهية . وقد وكل الله الشعب القاصر إلى الشعب
الأكبر الراشد ، كما يحدث من توكيل الأب للابن البكر في الأسرة الواحدة ..
فإذا لم يراع الأكر حُسن الرعاية والإرشاد كان اللوم كله منصبا عليه . وستعلم
الشعوب المتحكمة العاشقة للمادة وحدها ، كم ستكون تبعثها ثقيلة باهظة ، وجنائتها
كبيرة غليظة ، بتركها نفوس الزنوج وسكان الجزر النائية في المحيطات وجميع
الأمم الوثنية من غير حمل لها بالإقناع والإخلاص على ترك عبادة الأوثان ،
وعلى سمو الحياة الروحية .

لقد صارت الأرض كقطر واحد بفضل الكشوف الجغرافية ، وأدوات
الاتصال العلمية ، وسرعة الانتقال ، فكان من الواجب أن يتلاقى البشر على
معان قريبة في الدين ، ولكن المادية الحالية هي الحائل وهي الشاغل . وعلى
أية حال لن نعلم الوثنية طويلا بعد الآن .

كانت الأمة من الأمم السابقة تحتاج إلى رسول معين يرشدها في حياتها الروحية نظراً للقصور العام ، ولكن ميراث الرسل المتروك والمملخص في رسالة محمد يستطيع أن يخرج رسلاً عديدين ينتقدون الخاضعين للسحر الأسود والوثنية والمتنوية وغيرها . . . ولعلها رسالة مدخرة لاتباع محمد حين يتم نضجهم وكلهم بعد يقظتهم الثانية هذه ، فإنه ليس هناك كتاب دين حارب الوثنية وأبغضها وحطمها وناقشها من جميع وجوهها كما فعل القرآن . . . وليس هناك أمة أفهمها كتابها أنها منتدبة لحماية عقائد البشر من الوثنية وغوائل التوحيد ، كالأمة الإسلامية .

ويمكن لأي فرد الآن أن يعلم من حقائق الدين وحقائق الطبيعة ما كان يختص بعلمه الكهنة والأوصياء في الزمان القديم . ويخيل إلى أن جهود النبوات كلها كانت موجهة إلى تفهيم الإنسان قيمة الطبيعة ، وإلى شغل عقله بالبحث فيها ، حتى يهتدى إلى مفاتيح تسخيرها ، ويبرأ من عبادة ظواهرها وقواها ويعبد بارئها وحده . وقد نجحت النبوات نجاحاً باهراً في ذلك ، وأنقذت الإنسان الذي يسكن الجزء الأهم في الأرض ، وجعلته هو صاحب السيادة والسيطرة فيها ، وجعلت الأمم الوثنية خاضعة له ، أو ناظرة إليه وتابعة لخطواته ، فلم يعد هناك حاجة إلى بعث رسل مؤيدين مكلمين من السماء ، لأن مجال الدين صار واضحاً .

والخلاف الآن على الطقوس المختلفة في الديانات . وسيكون أقرب هذه الأديان إلى الفطرة والسبيل العلمية ، هو دين الإنسانية الموحدة .

كلما فكرت في صمت الطبيعة المطبق تجاه الإنسان ، وثبات السماء والأرض أمام حواسه ، وعدم اكتراث الأشياء له ، وعدم وجود ثغرة ينحدر

منها إلى أفق آخر غير هذه المناظر الهائلة الثابتة . . . اعترتني رهبة من وضع
الإنسان هذا الوضع الذي أغلق عليه فيه كل شيء ! وأقامني الفكر بين العجز
والتعب كما يقول المتنبي :

ومن تفكر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب
ولكني أفرض في بعض الأحيان أن الإنسان استطاع أن يرقى أسباب
السماء بسلم ، وأنه طار كالريح ، وانتقل كالبرق ، وصار الكون كله مَرْوِّجًا
بين عينيه : فهل يفيد ذلك شيئاً في فهم وجود أى شيء ؟ كلا فيما أتخيل . . .
لأن الذى ينتقل من متحف أعاجيب صغير إلى متحف أعاجيب كبير ، لا يزيده
ذلك إلا دهشة ورغبة في معرفة الأسباب ! .

وهبوا الإنسان حل كل شيء في الطبيعة وركبه . . . فهل تذهب قدرته
تلك حيرته ودهشته من إدراك العلاقة بين فكره وبين الأشياء ،
وفي إدراكه نفسه وقدرتها ؟ كلا ! فيما أتخيل . . . فهو سوف لا يدرك من
نفسه إلا أنه آلة خالقة تفعل الأعاجيب . فنحن مهما أدركنا ومهما فعلنا
فسنظل حائرين في معرفة كيف ندرك وكيف نفعل ما نفعل . . . ويبقى وجود
كل شيء بعد ذلك لغزاً مغلقاً كما هو ! ! .

ومن هذا المدخل أدخل إلى بحث « المعجزة الحسية » ، تلك العقبة التي
يصطدم بها أكثر الباحثين المتشككين في طريقهم إلى الإيمان بالنبوة ؛
لأنهم يرون في إيجادها خرقاً للناموس العام الذى ينتظم الطبيعة ، وخروجاً
على سنن اطرادها ؛ ويرون الإيمان بالنبوة لا يكون إلا بالإيمان أيضاً بهذا
النوع من الأفعال الخارقة لسنة الطبيعة ؛ فيقفون مترددين محجمين عن الإيمان
بالنبوة والوحي ، إذ يجدون في منطقة الإيمان بهما عقبة المعجزات الحسية ،

فيذهبون إلى تأويل النبوة والوحي بتخريجات لا تتفق مع الإيمان الصحيح ولا مع نصوص القرآن الصريحة ، ولا مع منطق النبي نفسه ومعنى النبوة التي أدركها هو في روحه وفكره ، وحدثنا عنها ، ووصفها لنا .

فهم يحاولون أن يفهموا الوحي على أنه فيض ذاتي في النفس الإنسانية ، وحالة إلحاح من فكرة الصلاح والحق على قلوب بعض محبي الإصلاح من البشر بعد إدراك تام للاتجاه العام في الطبيعة : فيخيل إليهم حين يدركون ذلك أن إرادة رب الحياة معهم ومنطقه في أفواههم وعقولهم ؛ فيصدعون بالدعوة ، وليس هناك وراء هذا اتصال بينهم وبين الله ولا حديث ولا شيء . وأما الخوارق التي كانوا يحجرونها فهي أعمال ناشئة من يقظتهم وإدراكهم علماً من الطبيعة لم يدركه غيرهم ؛ فيستخدمون ذلك في إقناع الناس .

هذه هي خلاصة مقالة منكري النبوة في العصر الحديث . وقد ألححت سالفاً في بيان النبوة كقانون من قوانين النشأة العقلية والروحية ، وأنها أشبه بالعلاقة بين الأبوة والبنوة في التريب والإرشاد ، وأنه ليس من المعقول أن تمضي الحياة الإنسانية من أول نفس إلى آخر نفس من غير سماع كلمة غير إنسانية مما وراء الطبيعة ، وإلا لزم أن تهدر قيمة الإنسان أمام نفسه لأنه لم يسمع حديثاً من الحياة يحدد له قيمته ومكانه . . .

أما المعجزات الحسية فيحدثنا عنها القرآن حديثه القاطع بوجودها ؛ القرآن المعجز الدائم يحدثنا عن ناقة خرجت من صخرة ، وعصا انقلبت حية ، وطير خرج من طين ، وعن كثير من الآيات بحديث صريح لا يقبل تأويلاً ولا تحريجاً غير ما يحتمله لفظه . ولم يشر القرآن بأية إشارة إلى أن الأنبياء الذين جرت على أيديهم هذه الخوارق كانوا على علم بأسرار ما يفعلون .

بل بالعكس يحدثنا أن موسى خاف وفر وولى مدبراً حين رأى عصاه تنقلب إلى ثعبان مما يدل على أنه ما كان يدرى بسر ما يجري أمامه .

إذا فقد حبط قولهم إن تلك الخوارق ناشئة من إدراك النبي سرّاً من الطبيعة لم يدركه غيره .

وينبغي أن نتذكر دائماً أن كل شيء في الطبيعة معجز ومخير ، وأن إضافة شيء إلى الطبيعة من أعمال الإيجاد والخلق في ظروف استثنائية تقضي الضرورة بإحداث حجة حسية دامغة فيها ، تلك الإضافة لا تزيد عجباً ولا تستحق دهشة أكثر من غيرها من الموجود قبلها .

وينبغي أيضاً أن نمنع خيالنا من تصوّر الله تعالى خاضعاً لطرق صناعتنا فهو لا يحتاج إلى مخاير ومعايير ومنافخ وآلات ومعامل حتى يخرج شيئاً وإنما المسألة بالنسبة إليه هينة . . . وقد وهم إبراهيم عليه السلام ، كما سبق القول ، حين قال له : « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى » إذ أنه ظن أن هناك كيفية وأسلوباً محسوساً لإيجاد الله الأشياء ، فلم ير من كيفية الخلق أكثر من الأسلوب الذي نراه كل يوم وكل ساعة في وجود الأشياء من نبات وحيوان ، وفي تجدد المادة والقوة والطاقة .

فالأمور والأشياء من أولها إلى آخرها معجزات وآيات محيرات ؛ ولو خلقناها بأيدينا لم يذهب ما بنا من حيرة ودهشة كما قدمت في أول هذا .

أقول هذا وأطيل ؛ لأبين للذين تصدمهم المعجزات الحسية المنسوبة إلى الرسل السابقين قبل محمد ، وتصدمهم عن الإيمان بالنبوة بمعناها عند جمهور الناس ، أن أمرها أهون في التقدير مما يتصورون ، وأنها لا تستلزم هذه الحيرة والدهشة ؛ لأن الله يفعل مثلها في كل دقيقة ملايين الملايين .

ثم إن الله تعالى لم يضع قوانين التكوين ليتقيد بها كالأغلال والأصفاذ ، فلا مانع أن يحطمها في جزئياتها التي يدركها الناس عن قرب في ظروف استثنائية ، حتى لا تموتهم — كما توتهم بعض فلاسفة اليونان — أن الله لا يقدر على مخالفة سنن الطبيعة .

ما قدمناه من الحديث يدور حول علاقة المعجزة بالطبيعة وسننها المطردة وحول علاقتها بالله موجد الطبيعة . ويبقى حديث حول علاقتها بالناس وعقولهم وآثارها في الدعوة .

هل هناك ضرورة ظاهرة لإحداث المعجزة ؟

للجواب على هذا ينبغي أن نستحضر صور المجتمع الإنساني في عصوره الأولى البدائية الجاهلة المحدودة الإدراك ، الواقفة عند الحسوسات ، الغارقة في الجهالات ، الموزعة عقليتها بين السحر والمخرقة ، كل أمة في عزلة عن الأخرى ، لا ترى إلا قطعة محدودة من الأرض وأفقاً ضيقاً من السماء ، ترى ظواهر الطبيعة ولا تستطيع لها تعليلًا ، تأكلها الفواجم وتحصد الأوباء ، ويستبد بها الكهنة والرؤساء ، وتسير كقطعتان سائمة هائمة في بيداء الحياة ، ليس لها علوم وآداب إلا ما هو في نطاق ضرورة العيش والارتفاق .

ثم يفاجئ أحد هذه المجتمعات رجل يحاول أن يحطم كل وثن ومعبود ، ويذهب كل شر ، ويحمل على كل خير ، ويخلع أمتة من ماض وتاريخ وسيرة آباء ، ويقول — وهنا الهول والدهشة ! — أنا رسول من الله رب السماء والأرض ، اختصني من بينكم وأتني على روحاً من أمره وكلمني ! نعم كلمني ! وهذا الرجل في الغالبية يكون فقيراً لا مال ولا جاه له ، مما يفتن العامة ويدعو إلى احترام الخاصة .

فمن ذا عساه أن يؤمن مع هذا الرجل من مثل هذا المجتمع المنحط الخاضع لمنطق الطمأنينة . الذي لم يدرك الحق بنفسه ؟

أظن أنه لا جدال في أن من يستجيب سريعاً لهذا الرجل هو العدد الأقل ممن يلي كلمة الحق لأول سماعه بها . وهؤلاء ، حتى في زماننا ، زمن العلم والحرية والديمقراطية . لا يكادون يبلغون عدداً تصلح معه شئون الأرض . ويستقر العمران ويتحقق به نمو حركة الفكر والخلق . فلا بد لصالح الأرض من صلاح جماهير العمال والزراع ، وهؤلاء هم القطيع الذي يملأ بقاع الأرض ، ولا يستطيع المصلحون أن يحققوا مثاليهم العليا إلا إذا تسلطوا عليه ، وملكوا قياده ، وهؤلاء هم موضع عناية الله ووصاياه . لأنهم لا يستطيعون أن يتفرغوا لإدراك كماله وجلاله ، إذ أنهم مشغولون بالسعي إلى الرزق والضرورات المادية . ويخيل إلى أن الله تعالى قدّر في وضع النبوات الأولى منطقهم ووجدانهم أكثر من غيرهم من الخواص ، لأنهم هم جمهور الإنسانية ، لا تستقيم أمورهم إلا بإرضائهم وإصلاحهم . أما الفلاسفة والحكماء فقليلون كما قدمنا . ولوراعى الله منطقهم المعقد ، وإدراكهم المتشعب ، فأرسل الرسالات بأسلوبهم وخدمهم ، وجاءت كتب الدين ككتبهم . إذا ما استجاب للإيمان غيرهم ، وهم في الإنسانية قلة . . .

فلا بد أن نفهم هذا ، لنفهم أنه كان لا بد من وسيلة أخرى بجانب وسيلة المنطق والعقل لإخضاع جماهير الناس في تلك الأزمان التي كانت أغلب علومها تدور حول البحث في تحويل عناصر الطبيعة ؛ كقلب الرصاص إلى ذهب ، وحول علوم التخيل ، كالسحر والسيميا ، وكيفية شفاء المرضى بالتأميم والتعاويذ ، وتحضير الجن ، والاستهواء وراء القوى الخفية ، والتحليل على تزويق الأصنام وإنطاقها ، وخلع معاني الحياة وحركاتها عليها ؛ إمعاناً من الكهنة في بسط

سلطانهم . وسعيًا من العمة وراء غيبوبة الأحلام وكدوات الآمانى والأوهام .
ولا تزال بقايا كبيرة من السحر والمثنوية راسية في أذهان الجماهير في
عصرنا هذا . . « فعيادات » كثير من الدجالين والمشعوذين أحفل بالزائرين
من عيادات كثير من الأطباء الذين يعتمدون على العلم والاختبار ، وقبور كثير
من المشايخ تقصد للاستشارة والاستخارة أكثر مما تقصد مجالس العقلاء
والمجرّبين الذين يعطون الرأى والمشورة التي لا تخطئ . فكيف يهمل الله
هذه النزعات الطفلية في نفوس أكثر القطيع الإنسانى من غير أن يفهمهم
من طريق الحس وإقامة الحجة الدامغة — في رأيهم — حسب ما يقترحون ؟
وإذا علمنا أن الغاية من المعجزة غاية عظيمة بل أعظم غايات الحياة وهي
حمل كثير من الناس على الإيمان بالله ، وإقناضهم مما يهدر كرامتهم ويسفل بهم
إلى أقل من درجة البهائم ، وهو السجود لصنم ، واللياذ به ، وبيع الحرية
الفكرية والشخصية . . إذا علمنا ذلك ، تبين لنا أن المعجزة أمر محتم لتكملة
السعى في سبيل إنقاذ الإنسان .

ولذلك رأى رب الحياة ضرورة تأييد أكبر الحق في الحياة وهو
الإيمان به ، ضد أكبر الباطل فيها وهو الكفر به ، بكل وسيلة ، استجابة
تقاضى الإدراك الذين طلبوا ذلك ممن يتحدث باسمه تعالى ، حتى تقوم
الحجة الحسية أمامهم .

نعم إن المعجزة الحسية كانت لا أثر لها في الإقناع عند أكثر من لم يقتنع
بالحجج الفكرية ، وأغلب ظنى أنها ما أجريت لإقناع الجميع ، بل لتعجيز المكابرين
وأخذ طرق الإنكار عليهم ، حتى لا يفلتوا إلى عذر بعدها ، وحتى يحملوا حملا
على الشعور بتعنتهم ؛ ولذلك كانت هى الدور الأخير من حجج الرسل بعد أن

تعييهم لحاجة الناس . فموسى مثلاً كما حكى القرآن : دعا فرعون للإيمان بالله عن طريق العقل والحجة في أول الأمر ، فلما كذبه وهدده بالسجن . قال : أَوَلَمْ يَجِئْكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ » وألقى عصاه . . . إلى آخر القصة . وكذلك سلك كل رسول من أصحاب المعجزات ، فهي كانت آخر سهم في كمانه الرسول أمام المعتنقين ولم تكن ذات أثر كبير في حمل بقية الناس على الإيمان كما حكى القرآن . قال : « وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ، وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ، وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا » . . . والجملة الأخيرة من الآية تدل على أن المعجزة لم يكن ورودها للإقناع ، فهي إنما أجريت لإتمام الحجة وابتدال كل شيء حتى قوانين القطرة في سبيل العناية العظمى للحياة الإنسانية — وهي الإيمان — فالذي لا يقتنع عن طريق التفكير والمحاكمة العقلية ، بقضية من قضايا الحق ، لا يقنعه أن تقلب له العصا حية ، أو الصخرة ناقة ؛ وإنما هو سيتعجب فقط من فعلك ، ويبقى في نفسه الإنكار للقضية التي سقت دليلك الحسى من أجلها .

ولذلك جعل الله الرسالة الأخيرة معتمدة على حجة عقلية دائمة . هي القرآن ، الذي هو الرسالة والمعجزة المثبتة لتلك الرسالة في الوقت ذاته . . . وهذا أمر ذو قيمة كبرى تفرد به الإسلام .

وقد أراد مشركو مكة أن يتهجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم طريقة مَنْ قبلهم من الأمم في طلب الآيات الحسية ؛ فأبى عليهم القرآن ذلك ، وقال : « أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ » . . . « كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا » . « وَلَوْ فَتَحْنَا

عَلَيْهِمْ يَا أَيُّهَا السَّمَاءُ فَظَلُّوا فِيهِ يَغْرُجُونَ ، لَقَالُوا إِنَّمَا سَكَّرَتْ أَبْصَارُنَا
كَيْلَ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْخُورُونَ ... » وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ ، وَكَلَّمَهُمُ
الْمَوْتَى ، وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا يَئُودُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .
إلى آخر الآيات التي تبين أن المعجزة الوحيدة التي تحدى بها رسول الله إنما
كانت القرآن وحده ...

وبعد هذا أقول للذين يرون المعجزات الحسية عقبة في سبيل الإيمان
بالنبوة : أليس الناس متنوعين في التفكير وطرق الاقتناع ؟ فلا بد إذن أن
تنوع وسائل إقناعهم ، فمنهم العقليون الذين يسرون على سنن الله ، ويدركون
كلماته في الطبيعة ؛ ولو لم يتحدث إليهم بصوت ولا نبرات ، وهؤلاء قليلون
جداً . ومنهم الأطفال المحدودون الذين لا يصدرون إلا إذا رأوا ثمرة أو جرة ،
درهماً أو سوطاً ، وهؤلاء هم الأكثرية العاملة الناصبة ...

لماذا تنسون طرائقكم في التدريس أيها الفلاسفة المعلمون ؟ ألا تنوعون
أساليب التفسير والشرح تبعاً لعقول تلاميذكم ؟ وهذا أيضاً هو عمل الله مع الناس .

« وبعد » فحديث الوحي والنبوة كان يجب أن يكون مفروغاً منه عند
المتأملين بعمق في الطبيعة . الذين يدركون عمق الحياة وتراحم تياراتها على القلب
الإنساني . مما لا بد معه من وجود حبل للنجاة فيها ، والطمانينة على قيمتها وقيمة
الإنسان .

إن وراء الحياة ربها الحكيم الذي يحتم العقل الإنساني وجوده ، ولن
يخلو الطبيعة منه إلا إذا جنّ واختلط ... وقد وضع الإنسان في قبة الحياة
الأرضية ، وصار له اقتراحات وأعمال في تنقيح الطبيعة والتصرف فيها ، تبين

أنه ليس شيئاً تافهاً يعيش على هامش الحياة ، فكيف بعد هذا كله يترك هذا النوع المكرّم من غير خطاب من الله من أول الحياة إلى آخرها ؟ ...

إن هذا الخطاب يحكم العقل والوجدان أنه لا بد منه ، حتى ولو كان للترف والأنس الروحي بين الله والمخلصين له . . . دع عنك الضرورة الاجتماعية الحادة التي تجتثمه ، ليستطيع الإنسان الرسول أن يحمل العبء مطمئناً متشجعاً صبوراً تحمّلاً . . . لأنه يسمع صوت الله قائلاً له : احمل واصبر لأني معك . . .

إن الكون مليء زاهر بكل معنى من معاني الحياة ؛ فهو كمصدر الإذاعة اللاسلكية ، والقلوب لها خاصة الالتقاط كآلات الراديو التي تستقبل ، وبعض القلوب قوى يستطيع أن يأتي بمعان صادرة عن أفق بعيد ، كما أن بعض آلات الراديو له قوة على التقاط الموجات البعيدة . . .

وهذا مدخل آخر نستطيع أن ندخل منه إلى فهم معنى الوحي ، فقلّب النبي وعقله أعداءً إعداداً خاصاً لسماع ما وراء الطبيعة أو رؤيته . . . وهما في قوتها يعتبران قمة الرقيّ الإنساني الذي يستطيع الإنسان أن يصل إليه في الاتصال بخفايا الكون .

وما دام العصريون يسمون بمذهب النشوء والارتقاء في الأجسام ، فلم لا يسمون به في العقول والأرواح ؟ .

ولا بد من باب ينفذ منه العقل الإنساني إلى ما وراء الطبيعة ، وهذا الباب هو عقل النبي وروحه ؛ ولن يقنع الإنسان بانقطاع الصلة بينه وبين ما وراء الطبيعة إلى هذا الحد الذي نراه من الإغلاق في الطبيعة ، وعدم سماحها بأي ثغرة تنفذ منها .

ولو كان منكرو النبوة والوحى يتبعون الأسلوب العلمى فى بحثهم حول النبوة والوحى ، كما يتبعونه فى بحثهم فى المادة ، ما أباحوا لأنفسهم أن يرفضوا شيئاً لم يقدّم دليل علمى على بطلانه ، بل ما أباحوا لأنفسهم أن يجادلوا فيه عارفيه من الأنبياء والأصفياء إلا على سبيل الاستفسار لا الإنكار . فكما لا يباح لرجل الشارع الجاهل أن يجادل « ملكن » أو « مركوفى » أو « أديسون » وغيرهم من أساطين العلم المادى ، لا يباح — لو أنصفنا — أن ننكر على الأنبياء ما رأود فى آفاق الحياة والروح ، إلا إذا كنا على قرب منهم فى الصفاء والرياضة الروحية التى كانوا يزاولونها . فالأسلوب العلمى يختم على من يريد الإنكار عليهم أن يقارب منهم ويزاول ما يزاولون .

قال الغزالى أبو المعرفة ومحصل علوم زمانه فى كتابه (المنقذ من الضلال) « ومن أول الطريقة تبتدى المكاشفات والمشاهدات حتى إنهم (الصوفية) فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ، ويقتبسون منهم فوائد ، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، ولا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه . وعلى الجملة ينتهى الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول ، وطائفة الاتحاد ، وطائفة الوصول . وكل ذلك خطأ . . . » إلى أن يقول : « وبالجملة فن لم يرزق منه شيئاً بالذوق فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم . وكرامات الأولياء على التحقيق بدايت الأنبياء . وكان ذلك أول حال رسول الله عليه السلام حين أقبل إلى جبل حراء . حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد ، حتى قالت العرب : « إن محمداً عشق ربه » وهذه حالة يتحققها بالذوق من يسلك سبيلها . »

نم بين الإمام الغزالي أطوار نموّ العقل البشرى من إدراك المحسوسات إلى إدراك المعقولات ، وبيّن أن وراء هذه المنطقة «عيناً أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون فى المستقبل ، وأموراً أخرى العقل معزول عنها» .

فعلى منكرى هذا من الباحثين الشاكّين أن يتبعوا الأسلوب العلمى فى الإنكار والإثبات ، فيسلّكوا سبيل أبى حامد الغزالي وأشياعه ، ليروا أهم على حق أم على باطل ؛ فلقد كان أبو حامد شاكّاً فدرس وسلك حتى أتاه اليقين ...

البَدَلُ الإِلَهِيّ

مقدمات لإدراكه واليقين به

— ١ —

لا شك أن العقل هو الخصوصية الأولى للإنسان ، فواجبه أن يثق به
ويقيم حياته جميعها عليه ، وهو محاسب عليه أشد الحساب ، لأنه ميزان
الحساب في كل شيء .

وهو الذى وطد الحياة الاجتماعية التى يحياها الإنسان الآن ، وإليه يرجع
كثير مما فى الحياة الإنسانية من آثار الرفاهة والسعادة والخدمة المشتركة ،
فلماذا لا يصمم الإنسان على ألا يحيد عنه حتى يرتاح دائماً ؟
ولماذا لا يعرف أن عقله روح من العقل الأعلى الذى يدير الكون
بالتدبير والدقة والاطراد وعدم الإخلال بشيء ؟

إن الفرائض يجب أن تكون ملجئة بمحدوده حتى يتأتى تقدم الإنسان دائماً
وعدم ارتداده وانتكاسه .

وعقلنا هو نتيجة تلاقى المؤثرات المختلفة التى فى الطبيعة على كياننا ،
فيجب أن يكون تلاقى هذه المؤثرات موزوناً بنسب معينة من جميع
الجهات ، حتى يخرج العقل منسوقاً موزوناً . . . فإذا صار لشيء من الطبيعة
زيادة تأثير على ناحية من كياننا ، كان فى هذا اختلال لمركز التجمع
الفكرى العام .

ومهمة التربية والتنشئة أن توازن بين تسلط هذه المؤثرات الطبيعية جميعها

على الإنسان ، فلا تجعل مؤثراً أو عدداً من المؤثرات يطفى أو يستأثر بالسلطان عليه ، بينما المؤثرات الأخرى تكون معطلة .

فإنسان الصحراء وحدها قد خضع لمؤثراتها وحدها ، فله عقل معين : وإنسان المزارع وحدها متأثر بها وحدها ، فله عقل آخر . وإنسان المدن الصناعية له عقل ثالث ، وهلم جرا .

وإنسان الفن وحده له عقل معين ، وإنسان العلم وحده له عقل آخر ، وإنسان الأعمال التجارية له عقل ثالث . وهلم جرا .

فلسكى نتحاشى أن تكون الفروق بين العقول فروقاً فاحشة بحيث لا يمكن تلاقيها ، يجب أن نجعل الفرد تتقلب عليه شتى المؤثرات وتتداول فكره ، حتى تكون آثارها فيه ينسب موزونة تعطيه سعة النظر إلى الحياة وتقدير آفاقها جميعاً .

وإني لأعجب للدولة الواحدة التى تترك أفرادها ، وبينهم من التفاوت فى النشأة العلمية والاقتصادية والخلقية ما لا يمكن أن يتصور معه لقاء منهم على شيء !

فكيف يتصور هؤلاء الأفراد الأوزاع المشتتون الذين لا رابطة تجمعهم معنى العدالة الإلهية أو العدالة الإنسانية ؟

لاشك أنهم معذورون إذا لم يستطيعوا أن يتصوروا تلك المعانى الكلية الجامعة التى تحتاج إلى إعداد وتهذيب وتكوين خاص لإدراكها .

وأول نظرة يتركها العقل المتعرف وجهات الحياة ، المعترف بجميع الأمم والشعوب ، المتحرر من التأثير بالتحلفات وموارث التاريخ ، توحى أن الإنسانية أسرة واحدة ، وأن الأرض وطن واحد لهذه الأسرة .

والنظرة الثانية توحى أن الله وضع الإنسان في الأرض موضعاً عظيماً هو موضع السيد المتصرف ، على الأقل في الظاهر .
وثالث نظرة توحى أن الله أعطى الإنسان قدرة واختياراً لتكييف حياته كما يشاء .

ورابع نظرة توحى أنه يكاد لا يكون في الطبيعة فساد ولا آلام تجعل وجه الحياة كريهاً مشوهاً ، إلا بفعل الإنسان الذي تزيد نسبة الشرور التي يرسلها هو على الحياة وعلى بني جنسه على نسبة الشرور التي تأتي من الطبيعة مباشرة ؛ كالبراكين والزلازل والطوفان والصواعق . . . الخ ، وخصوصاً في هذا العصر . . . ومن المشاهد المعروف أن الإنسان لا يضيق صدره بقضاء الله وقدره المباشر ، ولا يشور غضبه وحقدته ، ويتحول إلى عامل دمار وخسار ، إلا في مقاومة الاعتداء والشر الذي يأتيه من الناس ؛ لأنه يجد نفسه في قدرة على دفاعهم والانتقام منهم ، فيقدم على ذلك ليرضى حزازات نفسه . أما شرور الطبيعة ، فيتألم منها ، ولكن لا يشور عليها ، لأنه لا يملك أن يشور عليها ، فهو يجد أن أحسن وسيلة للقائها هو الصبر والاحتمال ومحاولة مقاومتها بإدراك أسباب الوقاية أو المعالجة .

فإذا أردت أن تعرف العدل الذي فرضه الله تعالى على نفسه ، فلا تنظر نظرة ضيقة متأثرة بالأنانية للشخصية أو القومية . . . لا تنظر إليه من مكانك أنت في أمتك ، ولا من مكان أمتك في الأمم . بل انظر إليه وأنت تمثل الإنسانية الواحدة . . .

ثم إذا أردت أن تنظر إلى الإنسانية في الأرض ، فانظر إليها من السماء نظرة الله . . . إنك حينئذ تراها هكذا : أسرة واحدة متنوعة أفراداً وجماعات وأممًا . . . كل جماعة استأثرت بمكان ومنعت غيرها عنه . وكان اقتسام الأمكنة

غير عادل ؛ فأخذت أمة السهول المُمَرَّعة ونالت أخرى الأجاذب ، فراغت
عيون المحرومين وجاعوا إلى الضروريات فلم يلبَّ لهم رجاء ، ولم يخفَ المترفون
الأغنياء انجذبتهم ، فهاجموا وقاتلوا واستولوا وأذلوا وصار بعضهم يموج
في بعض . .

وحقيقة الحقائق الاقتصادية التي يجب أن تقوم عليها فلسفة الحياة المادية ،
أن ما في الأرض من خيراتها وموارده الأرزاق فيها كافٍ لجميع سكانها ،
ذلك أمر تولى الله تقديره وتديره « وبارك فيها وقَدَّرَ فيها أقواتها » .
كان الواجب العقلي المجرد من الغرائز أن يسرع المتخوم بإسعاف المحروم ،
وأن يقتسم معه ما زاد حتى على كالياته ، وأن تقوم حكومة عادلة تتولى ذلك . .
فإن الأرض كلها ميراث للإنسانية كلها كما يرى الله وكما قدر ودبر . .

- ٣ -

ورأي أن كل ظلم واقع على المستضعفين فمُسئِلته أمام الله واقعة على
كاهل الأم القوية ، وكل أمة جاهلة مسئولية جهلها واقعة على الأم العاملة . .
وكل أمة فقيرة مسئولية فقرها واقعة على الأم الغنية . فالله ترك القاصرين منا
للراشدين ، كما يترك الأب أولاده الصغار لرعاية الكبار . . ذلك قياس العقل
الإنساني وذلك منطق في الأسرة الواحدة ؛ فلم لا يكون قياسنا في الأمة الواحدة
ثم في الأمم المتعددة ؟ !

ولذلك كانت النفس العربية في أول نهضتها برسالتها تحس ذلك الإحساس
التمثل في قول رسول الله : « كلكم راع وكلكم مسئول » .
وقول أبي بكر : « لو أن عقال بعير ضاع بالعراق لحسبت أني مسئول
عنه أمام الله » .

وقول عمر حينما رأى شيخاً قبطياً مسيحياً يسأل الناس على باب مسجد
« لقد أضعتك صغيراً ولم نَكْفِكَ كبيراً » وأجرى عليه رزقاً يكفيه ..

وقد قام العرب أول الأمر بمقتضيات هذا ؛ فكانوا يعتقدون أنهم
مستولون عن إصلاح الناس جميعاً ، ورعاة لهم جميعاً . . فتنقلوا لايبحثون عن
الأمكنة الخصبه للاستعمار ، بل يبحثون عن عباد الله للإرشاد والإفقاذ
والتعليم ، فكان أحدهم يخرج من جنات الشام والعراق ومصر إلى صحارى
الشرق والغرب يبحث عن النفوس الضالة ، والعقول الشاردة . . فلما ركنوا
إلى التوطن فى الرياض ، وتركوا الهجرة لمناهم الأعلى ، وفقدوا التبشيره ،
قلّ دخول الناس فى دينهم ، إذ وجدوهم مثلهم : تجار دنيا . .

- ٤ -

إن العقل إذا أهمل ، ضلت الإنسانية وتحولت أسباب حسناتها
إلى سيئات . . والمسئول عن ذلك ليس الله ، بل الإنسان فى مجموعه . ولم يخلُ
عصر من العصور التاريخيه من إمبراطورية عظيمة كانت تسيطر على أغلب
مقدرات الأمم ، وتستطيع أن تقيم العدالة بينها لو أرادت ، ولكن الأنانية
والجهل وعدم الانتباه إلى مسئولية الخلافة فى الأرض ، هى التى ملأت الأرض
بالظلم والفساد .

والدليل على ذلك أن الإنجليز مثلاً أو الجرمان أو الروس البلاشفة
أو الأمريكان ، حين أقاموا دولهم فى بلادهم على الشعور بالوصاية العامة وتوزيع
العدالة ، ارتفعت نفوس الأفراد ، وصحّت الأجسام ، وسمت عقائد الحياة ،
وتقدم العلم ، وكفيت حاجات النفوس إلى حد ما . مع أن كل أمة من
هؤلاء مكونة من عدد كبير . . بينما أمة صغيرة من الهمج وأشباههم ،

لا يزيد عددها على بضعة آلاف ، ولا تزيد مساحة بلادها على بضعة أميال ، تعيش في فوضى واضطراب وفساد وجهالة ؛ لعدم الإحساس بالمعنى الإنساني في كل فرد ، وعدم الإحساس بالوصاية العامة ، وعدم تدبير الأمر بينهم . وإن حياة السوء التي تحياها الأمم المتأخرة هي التي تبابل عقائد المفكرين من الجاهل ، وتجمعهم يحملون الله مسئولية ما يقتفون ه . . . إنهم يعترفون بالأقدار ويحملونها متاعبهم ومسئولياتهم حين يكونون متخلفين متقاعسين ، ولا ينظرون إليها ويعترفون بها حينما يكونون قادرين .

وإنك لو فكرت وقدرت ، لوجدت جرائم القادرين والأغنياء هي التي سببت ملء الأرض بجرائم الفقراء ، كالسرقة والقتل وحمل أسباب الأمراض وآثار الفقر المدمر .

لقد وجدت في هذا العصر نظم صالحة تسمح لدعوات الحق والصلاح أن تتخذ طريقها في أسواق الحياة بدون عوائق غير طبيعية ، بعد أن قدست حرية الفكر والقول ، وسمح لكل فرد أن يقول ما عنده بدون سباب أو أذى . وقد تيقظت الإنسانية لحياتها وقيمتها ، وعرفت قيمة الفرد فيها ، فأفسحت الأمم الراقية له المجال لخدمها بالقول والفعل ، مهما كان ما يدعو إليه جديداً غريباً . ومتى أخذ الناس أنفسهم أن يسمعوا لكل قائل ثم يحاكموه إلى العقل ، فهم في تقدم . فعلى كل مظلوم أن يصرخ ، وعلى كل داع أن يتكلم ، وعلى الجماعة أن تسمع لهذا وهذا وتنصفه .

والظلم السياسي أو الاقتصادي من القوى أو الغنى للضعيف المحروم ، هو الذي يجعل الإنسان يكفر أو يشك في العدل الإلهي . . . وطبيعي أن الله

لا يتدخل في كل شيء بين الناس تدخلا ظاهراً . . . وهو قد أقام قوانين الطبيعة حدوداً يتحداكم الناس إليها . . . فالتسار تحرق من يضع يده فيها سواء أكان صديقاً أم عدواً . . . والتردى من شاطئ يهلك ، والتعرض للعرض يُمرض ، والماء يغرق . وهكذا كل عمل له نتائج الحتمية ؛ لأنها قوانين طبيعية لا تبديل لها ولا تحويل . . . والله يترك لقوانين الطبيعة العقاب الطبيعي على كل مخالفة يرتكبها الفرد أو الأمة نحو تلك القوانين . ذلك ظاهر واضح في مجال الطبيعة .

وأما في مجال الإنسان فالاختيار أفسد عنده كثيراً مما كان يجب أن يسير عليه سيراً طبيعياً ، إذ قد ملأ حياته بالتهاون .

فالظالم يظلم ، وعلى المظلوم أن يثأر لنفسه ، ولو كلفه ذلك حياته . ذلك حكم الطبيعة وردّها الإيجابي ، كما ردّت بالإحراق على من دسّ يده في النار . . . وسكن المظلوم كثيراً ما يغفل ويُهمل الإصرار على أخذ حقه ، وكثيراً ما تبطئ الجماعة أو تهمل في رد حقه إليه .

وما دمنّا نعيش في جماعة فلا بد أن تتولى هي الأخذ بثأر المظلوم من ظالمه ، حتى لا ينفرط العقد الاجتماعي ، فإذا فرط المظلوم في حقه ، وإذا فرطت الجماعة في الانتصاف له . كان هنا حينئذ قانون طبيعي اجتماعي اعتدى عليه وخوف ، ولم يكن له من الإنسان تصحيح وردّ لقيمته ، وكان وراء ذلك حتماً ثمة في الجماعة يتطرق منها الفساد ، فليس الذنب هنا ذنب العدل الإلهي ، ولكن ذنب الجماعة التي برهنت حين أهملت الاقتصاص من ظالمها أو ظالم أحد أفرادها ، مع أنها أقوى من ذلك الظالم ، على أنها لا تستحق الحياة الرشيدة لأنها لا تعرف قوانين المقاومة ، وعلى أنها غثاء وقشّ يستحق أن تضغطه قوة أخرى أصلح منه للسيطرة على الحياة .

إن الله يقاوم النفس بالنفس كما يقاوم أية قوة طبيعية بقوة مضادة لها ،
ايضمن التناسق والصلاح ، ودوام كل شيء كما وضعه وجعله يسير في دوراته
الأبدية « ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

وإن حجته الناهضة على عدله ، أنه لم يجعل لأحد سيطرة على فكر أحد
وشعوره القلبي . فإن تستطيع أية قوة أرضية أن تتحكم في فكرك وشعورك .
فإذا أحسست بظلم ، فأمام نفسك قوة حرة تستعين بها : هي حرية الحركة
الفكرية والغضبية لرد الظلم عنك ، فلا تُفعل حَقك في الحياة ولا ترض بها غير
كاملة الحقوق ، ولا ترض بحياة الضعف مهما كلفك السعى للقوة ، واستمع
لهذا الصوت المتفجر من ضمير الكون يصيح بك :

« إن الذين تَوَفَّاهم الملائكةُ ظالمى أنفسهم . قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا
مستضعفين في الأرض . قالوا ألم تكن أرضُ الله واسعةً فتهاجروا فيها ؟ !
فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً » .

وأول واجبات الجماعة أن تبحث عن أصلح رجالها لتوليه حكمها . أى أن
توسّد الأمرَ إلى أهله ، وأن تقيم حدود حياتها ولا تتهاون أو تستثنى فيها ،
ثم تترك لحاكمها أن يحكمها بالعدالة والقوة القاهرة الرادعة .

ذلك هو طريق الله في حكم العالم : قوة وإحاطة ، وقهر وبقظة ،
وعدالة ومجازاة .

وإن الجماعة هي المسؤولة عن كل ظلم أو فساد يتطرق إليها . والله
لا يتدخل بتغيير شيء في حياتها إلا إذا أرادت وغيرت ما بنفوسها ، إنه جعلها
في الأرض صاحبة سلطان يكاد يكون مطلقاً في شئون حياتها الاجتماعية .

وعلى هذا هو غير مسئول عن توزيع الثروات توزيعاً ظالماً ، ولا عن شيوع
الجهالة والآثام .

من قال إن لكل إنسان الحق في أن يملك جزءاً كبيراً من ثروة وطنه
التي جمعها له كثيرون من العمال والفقراء ، ثم لا يؤدي حق الفقير والمحروم ،
ويترك أبناءهم يبحثون عن اللقمة والخرقة في المزابل كما نرى ! بينما هو يكاد
رأسه يتحطم في حساب أمواله المكدسة ! ؟

من الذي أباح للفرد أن يملك أكثر من حاجات نفسه وكلياتها في
متوسط عمر الإنسان ؟ فإذا كفّل أن يملأ مطبخه كل يوم بألوان كثيرة ، وداره
بالقُرش والرياش الفاخرة ، واصطبله بالخيول المطهّمة والسيارات الفخمة ، وفناء
داره بالأزهار ، وهكذا . . فما باله يشحّ على أمته فيما وراء ذلك ؟ !

فإذا تمتع كما يحلّ له وأفراط في ذلك حتى مرض ، فما باله ينسب ذلك
المرض إلى الله ويسخط عليه ؟ !

من قال للإنسان الغنى ، أو الفقير : احشد على مائدتك كل مادة مغلفة ،
أو كل لحم المريض من البهائم ، أو كل مالا تطيقه أحشاؤك ، أو كل طعام
الصيف في الشتاء وطعام الشتاء في الصيف ، أو أفراط في السهر وعربد وأطلق
لأهوائك وشهواتك العنان ، وسوف لا يكون من وراء ذلك شقاء ولا هم
يحزنون ؟ ! .

ومن قال له : كن قوِّداً لفلان ، أو ماسح حذاء فلان ، أو تَمَّاماً له ؛
لترقى أو تنال درجة أو وظيفة ؟ .

ومن قال له : بـع حريتك ، واجعل خدك مداساً ، وقل للكلاب :
ياسادتي . . . في سبيل الخبز القذر المعجون بدموع الدّلة ! .

ومن قال له : اترك ابنك قذر الجسم والتوب . عليه التراب والذباب ،
لأن العمر بيد الله ؟ ! .

ومن قال له : لا تحافظ على الطفولة « منطقة نمو الإنسانية » وأخرجها
ضعيفة جاهلة ؟ !

ومن قال : إن الحياة آلام ومشقات ؟ .

من قال ؟ ومن قال ؟ الله قال هذا ؟ أم الجماعة الفاسدة هي التي قالت
ذلك ونسبته إلى الله ، وجعلت الفردية تهجم على العدل الإلهي الذي أقام الناموس
الطبيعي بموازين لا تخطئ ولا تحابي ؟ !

اسمع ما يقول القرآن : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم
بركاتٍ من السماء والأرض ؛ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » .
« وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » . « يا عبادي الذين
آمنوا إن أرضي واسعة فإي فاتقون » والنقوى كلمة جامعة ينبغي أن يكون لها
مدلولها الأول : وهو العمل الوقائي لجلب الخير ولدفع الشر « الذين تتوفاهم
الملائكة ظالمي أنفسهم » إلى آخر الآية التي مر ذكرها قريباً « ظهر الفساد
في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم
يرجعون » .

قم إلى جسمك وقوّه بالرياضة ، وحافظ عليه من عوامل الفساد ، ولا
تناكل إلا ما يسمح لك به الطب ، ولا تسرف في الأكل والشرب ، ونقّ
جسمك من الأخلاط والفضلات الضارة . . ثم انظر هل يبقى به من سقم
أو كلال إلا ما تستتبعه الحياة العادية في الأرض ؟

وقم إلى منزلك ومتعه بهبات الله من الشمس والضياء والهواء والبعد عن
العفونات والرطوبات ، ثم انظر : هل تجد فيه غير بهجة الحياة سواء كان قصراً
أم كوخاً ؟

وقم إلى فكرك وعلمه وهذبه وسلحه بأدوات العصر ، وقلبه في أعاجيب
الكون ، ثم انظر : هل تجد بعد ذلك سخطاً ما في نفسك وتشاؤماً وضيقاً ؟ !

وقم إلى حواسك ومتعها بالجمال المباح ، ولا تحرمها من زينة الله التي
أخرج لعباده ، وأذهب عنها الملل والسأم وعنت الجسد والعمل ببعض اللهو
واللعب المشروع ، وغنّ في غير فحش إن كنت حسن الصوت ، واسمع الغناء
الشريف والألحان القوية في غير إسراف ، وارقص — إن كان لا بد —
رقص الفتوة وطفور القوة الذي لا تختبئ فيه ولا شهوة ولا مخاصرة ، لتنفّض
عن كتفك أعباء الهموم في بعض ساعات حياتك ، واضحك من قلبك
كطفل ، وافرح بالشمس والقمر وأسلم جسمك للنسمات .

ولكن احذر أن تحول الإحساس بالراحة من عنت الأعمال الجديّة إلى
شهوة تتملكك وتسلبك التحكم في إرادتك وتمنعك من أداء واجباتك ؛ فإن
هذه الملامى والراحات والمباهج ، ما حرمت عند بعض المتزمتين إلا لأنها
تطغى على النفس وتمنعها عن الواجبات . وكما أن الماء يحرم في رأى الدين
والطب إذا أورث شارب به أذى ، كذلك تحرم هذه إن كان وراءها أذى للخلق
أو الجسم .

وقم إلى طفلك ، فاحذر أن تلقى بذرة إنسانية مسمومة بالجرأ أو الأمراض
الخبیثة ، حتى ينبت في الرحم وهو صحيح ، ثم حافظ عليه وهو جنين ، فلا تجعل
مؤثراً عنيماً يؤثر فيه ، حتى يخرج بريئاً من عوامل الالتواء والاعوجاج ،
فتعده وتيقظ لتنمية حواسه وجسمه ، وافتح روحه ، وثقفه وهذبه .

وقم إلى روحك فاعتقد لها العقيدة الصالحة الصحيحة ، وتعبد بمقتضاها ،
حتى توقظ فيك حياة الاتصال ببارئ الكون ، وتجعلك تحيل عليه جميع
أمورك وهمومك وآمالك ، وتقدم إلى وجهه جهادك وصبرك .

ثم قم إلى الجماعة التي تعيش فيها ، وأقمها على المنطق والمصلحة العامة ،
واحمل الناس على الإنصاف ، ثم استعن بالله وتوجه إليه في كل ما تقدم عليه ،
لأنه مالك الأمر كله . فإنك حينئذ ترى الفردوس الموقت المنشود .

— ٨ —

كل هذا لا يملكه الفرد قطعا لنفسه وذريته وحياته ، ولكن تملكه
الأمة لأفرادها إن أرادت ! وإرادتها حينئذ تكون من إرادة القدر الإلهي .
بل إرادة الأمة هي بدء إرادة القدر الذي في حدود قوانين الحياة ، أما القدر
الذي يأتي من وراء الحدود فذلك أمره إلى الله وحده ، وهو قليل .

إن مولانا محمداً رسول الله هزم هو وجيشه في يوم (أحد) ويوم (حنين) ،
لأن فئة من جيشه لم تأخذ بما أمرها هو ولا بما يأمرها به العقل ، فتركت في
(أحد) أماكنها في الصفوف لشهوة صغيرة ، وأعجبته كثرتها في (حنين) .
فلم يحاب قدر الله الجميع ، ولو كانوا أصحاب محمد ؛ لأن القدر لا يحابي من يخالف
قوانين الحياة . وفي ذلك إرشاد بالغ للمسلم حتى يعتمد على فكره وإرادته
بعد أن يطلب التوفيق من الله .

إنني أتصور في بعض الأحيان أنني ألقيت بنفسي في النيل ، أو لم أنحرف
عن طريق ترام أو سيارة شبراً واحداً ، فإذا بحياتي نضيع ؛ لأنني أنكرت

قوة من قوى الطبيعة لم أحسب حسابها ، أو استخففت بها ، وهى ذات بأسٍ الحديد ، أو صعقِ النارِ أو غمرِ الماء .

وإن الذى يقرأ القرآن مليون مرة فى مواجهة عدو مسلح لا يجديه ذلك شيئاً كما يجديه أن ينفذ آية واحدة منه وهى : « وأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ! كما أن اللص لا يجديه شيئاً أن يحفظ أو يتلو قانون العقوبات ، إذ لم يوضع هذا القانون للتلاوة والاستظهار ، بل للتنفيذ .

فالأوامر القرآنية منزلة لتنفيذها وإقامة الحياة بها لا « لحفظها فى الذاكرة » وإهمال تطبيقها . وتلك حقيقة أخطأ كثير من المسلمين فهمها مع الأسف . .

* * *

طبعاً ليس فى هذا الحديث وعد بالجنة فى الأرض بناء على تنفيذ هذه الوصايا . . ولكن فيه زحزحة عن النار . . عن جحيم السخط والألم والسكران والجحود والشك فى قيمة الحياة وفى العدل الإلهى . . وعن النظر إلى حياة التدين على أنها حياة كآبة وضعف وحزن وضئى وألم وسخط وندم . .

* * *

« فلنحاسب » الله « ولنحاكم » عدله الإلهى بعقل سام وفكر كبير كفكره تعالى فى الطبيعة كلها . وهذا لا يكون إلا إذا نظرنا إليه تعالى نظرة تتمثل فيه الإنسانية كلها ، لا نظرة أمة أو جماعة يزعمون أنهم شعبه المختار ، فهم لذلك يعتقدون أنهم أحق بكل ثروات الأرض وقوتها وجنة السماء ! أو نظرة جماعة ذليلة مستعبدة ، يملكون أن يموتوا أحراراً ، ولكنهم لم يفعلوا ورَضُوا بمذلات الحياة . .

فمن سوء الإصرار وقلة الإنصاف أن نظل نحاسب عدل الله بقول أطفال قصار النظر ، يريدون أن يستأثروا بحبه تعالى لهم وحدهم ، ويحاربوا من عداهم من عياله في مقومات حياتهم .

ومن المضحك أن كل شعب يزعم أنه الشعب المختار ، وأفراده أبناء الله وأحبائه ! . ومن المؤسف أن كل فرد في كل شعب غير مهذب ، يريد ثروة الحياة كلها لنفسه وحدها !

إننا نستطيع أن نطبق العدل الإلهي في الأرض ، وأن نحصل على السعادة إذا تحررنا من تاريخ طفولة البشرية الذي لا يزال يصاحبنا ، ويتمثل في غرائزنا الأنانية تمثلاً فظيماً يحيل حياة كل أمة إلى شقاء ، ويجعلنا كلنا نحسر التمتع اللائق بهذه الرحلة السعيدة التي دعانا الله إليها على هذه الأرض ، ويؤخر تقدمنا العلمي والروحي الذي يفتح علينا بركات من السماء والأرض ، تطعمنا من جوع وتوآمننا من خوف ، وتزودنا من طمأنينة اليقين بعدل الله والرضا عن الحياة .

بين الإثبات والإنكار

أحسب أن ما عند المثقف المتأمل العادى من العلم والرأى كفيلى أن يردّه إلى الاطمئنان متى حرص على أن يرى دائماً بدهيات الحياة ولا ينساها ، وعلى ألا يترك النظرات الفلسفية الشاردة تقوده إلى الخروج عن حدود الواقع العملى الذى لا ترى غيره فى الحياة متسلطاً على عقول أكثر الناس .

وإن النظرات الأولية للحياة ، هى التى تفرض علينا الإيمان ، فإذا جاوزناها ، لا بد أن يكون لنا من القدرة على الرجوع إليها ما يضمن لنا الاعتصام بصخرة النجاة والطمأنينة على الحياة وقيمتنا فيها .

وينبغى لرجل الفكر أن يتذكر دائماً أن إنكار وجود الله ، أو القيمة السامية لحياة الإنسان هنا ، أو المصير السامى لحياته الأخرى هناك ، معناه تخييل العقل وتشريدّه وأن كان فى الإثبات بعض الإشكال عند من لم يتصل بأصول الحياة ، ففى الإنكار كل الإشكال .

وأمام كل متأمل فرصة من التسامح المطلق ليوازن بين فكرتى الإثبات والإنكار ؛ وهو مجرد من أى تأثير نحو إحداها ، ليرى النتائج العملية لكل منهما .

وعلى هذا ، هب أن كل ما فى نفسك من الإيمان تحول إلى كفر ونكران ، وكل ما فى خلقك من البراءة والظهر تحول إلى تجس وعُهر ؛ أفتخيّل أنك واجد الطمأنينة والسعادة ووضوح الحياة بعد هذا التحول ؟ لا شك أن العاقل الناقد الذائق يحيب : كلا ذلك لأن الكفر المبني على

فكر ، ليس معه طمأنينة ولا استقرار على شئ ، بل هو في ذاته كل القلق الذى يجعل الإنسان في الحياة كطائر في قفص يرى قضبانه محكمة متينة ، ومع ذلك يظفر ويحاول تحطيمها والانطلاق منها ، وليس له على ذلك طاقة ، « ولن نُعجزَه هرباً » .

فالإيمان ضرورة فكرية للراحة في الحياة قبل أن يكون تقليداً موروثاً عن الأم والأب والبيئة .

ثم إن حياة الإثم والانطلاق وراء الشهوات والآثام ليست مبعث سعادة عند ذوى الأفكار ولا عند الأغرار والسفهاء أنفسهم . واسألهم ينبشوك أنها ظمأ لا يرتوى . دع عنك عقابيلها من الأوجاع والضيايع ، ولا يمكن للجاعة أن تقرها ، لا لأن الدين ينهى عنها ، بل لأن حياة الاجتماع تأبأها وتعلن الحرب عليها بعد أن اختبرت نتائجها السيئة .

فالدين لم ينزل بالفضيلة من السماء ، وإنما الاجتماع الإنسانى هو الذى قررها ، ثم جاء الوحي فأقرها ؛ لأن الحسن والقبح عقليان يُدرَكُان بالعقل قبل الوحي ، ولذلك عبر القرآن عن الحسن والقبح « بالمعروف » و « المنكر » أى ما يتعارفه الناس وما ينكرونه بطبائعهم العامة وأذواقهم المشتركة .

ثم الواقع أن الخير الشخصى جزاؤه فيه ، والشر الشخصى جزاؤه فيه فى هذه الدنيا قبل الآخرة ، وكذلك الخير الاجتماعى والشر الاجتماعى جزاؤهما معهما فى هذه الحياة إذا ما كان المجتمع حارساً متيقظاً لحقوقه وواجباته وخدامه وأعدائه .

* * *

وقد أحدث عقلية القرن التاسع عشر المزهوة بالكشوف العلمية ، والناقة على قضايا بعض الأديان وقيودها وخرافاتها التى تراكت عليها بتوالى العصور

وسارت في تفسير كل شيء خارج عن حدود المادة والمخاير والمعامل ، بتأويل مادي آلى ، فطفت الفلسفة المادية على الفلسفات التجريدية ، وأفردت الطبيعة من « الإرادة والعقل » ووكلتها إلى المصادفة والاحتمالات ، وأعطت الزمن حكم التصفية والتوجيه ، وأعطت القوى العمياء قوة الاختيار ، حتى قالت « إن الوظيفة تخلق العضو ! » وهزئت بحقيقة « السببية » والارتباط بينها وبين « المسببية » ووكلت الوجود إلى المصادفة والاحتمالات .

وقد كان يجوز أن نقبل هذه الفلسفات التي تسند إلى القوى العمياء بعض « الفاعلية » لو أنها جعلت وراء هذه القوى إرادة واحدة منظمّة مختارة موجهة . ولكننا لا نقبل بحال أن تكون هذه القوى فاعلة بذاتها ، مستقلة عن ذلك النظام العام الموضوع بتدبير محكم ، وإلا رجعنا بعقولنا إلى درجة أشبه بطور الوثنيات القديمة التي كانت تعبد بعض القوى ، قصورا من عقولها عن إدراك قوة كلية عامة تدبرها جميعها .

وإن أول سؤال يرد على عقل متوسط هو : ما هو العامل الموفق بين فاعليات هذه القوى المتضادة العمياء هذا التوفيق الدائم المطرد البديع ، لو أن الأمر كان كما يزعمون من تسلط تلك القوى العمياء على الكون ؟

والغلط الفاحش المغرور الذي لا يقبله العقل العام المتزن ، أن تتخذ حياة الأرض ، وهي ما هي من الصغر والضآلة ، مقياسا حاسماً نهائياً للحكم على العالم كله حكما جازما .

وقد وصل هذان بعض الفلسفات إلى حد فطيع من الرجم بالغيب ، باتخاذ القروض التي تساق في الأصل للمل ، بعض الفجوات التي بين حقائق العلوم كأساس مسلم للحكم عليه ، مثلما اتخذوا الأثير إلهاً ، وليس هو أكثر من فرض

فرضه بعض العلماء ليحل به بعض مشكلات التكوين في الطبيعة ، ولا يزال هذا الفرض بين رفض وإثبات إلى اليوم .

ويعجب العقل البسيط السائر مع أبحديات الطبيعة من أن يصل تفكير بعض الناس — بله كبار الفلاسفة — إلى مثل ما وصل إليه من هدم الحقائق بالفروض .

ليس المقصود من الحياة الفكرية ألا يرضى العقل بالأوليات الظاهرة المسلمة ، وأن يمعن في الفوص والتعقيد ، فيخرج بفروض غريبة شخصية ليحل بها ما لا يفهمه من قضايا الكون كما هو الطابع الغالب على الفلسفات ، وإنما المقصود من الحياة الفكرية أن يكون التأمل فيها ممهدا للإثبات والعلم اليقيني ؛ فلا يفلت الخيال في حالة الصحو كما يفلت في حالة النوم أو التخدير . . . وما من شك في أن عصور الفلسفة كلها لم تقد الإنسانية بمقدار ما أفادتها الطريقة التجريبية ، فإنها الطريقة التي فقرت بالإنسانية إلى أسباب رقيها السريع في القرنين الأخيرين ، لأنها تركت عالم الأحلام والبدوات والفروض الشخصية التي قد لا تفهم إلا في رؤوس القائلين بها ، وقد لا تكون ناضجة الفهم في رؤوسهم أيضاً . . . واتخذت البديهيات البسيطة والمركبة أساسا بنت عليه صرح العلم الحديث .

ولقد كان جزاء هؤلاء الذين يسرفون في اتباع الظنون والفروض ، ويتركون البسائط المعقولة بالبديهة إلى الأوهام ، أن يعيشوا منكدين أشقياء متشائمين مرضى مضروبين بالشك والألم والبليلة والشذوذ ، منفيين من الحياة !

إن (شوبنهاور) قد كذب كذبة بقاء ، وخرف خرفاً عبثياً ! حين زعم أن العالم معدوم لا وجود له إلا في تصور الإنسان ، وحين أسند العمى والهواج إلى (روح الوجود) وحين زعم أنها لم تدرك نفسها إلا في عقل الإنسان وشعوره .

إن أقل ما يجب عقلياً « لروح الوجود » وخالق هذا الكون العجيب أن يتصف بصفات الإنسان العادى المتوسط المحترم بين الناس - بله السوبرمان - فكيف يسلبون المشيئة الغالبة على الكون الصفات الضرورية لبعض ما أوجدته ؟! كيف يعطى الخالق ما لا يملك هو من صفات التدبير ؟!

مهما فلسف الإنسان فلن يستطيع أن يهدم الإيمان العام بحقيقة « السببية » العاقلة البديهية المستقرة في كل نفس إنسانية أو حيوانية استقرار وجود تلك النفس .

ومنذ عهد « طاليس » إلى الآن ما استطاع فيلسوف أن يغزو فطرة الإنسانية في إيمانها بهذه الحقيقة وينزعها من إلهامها . ولئن كان الشذوذ والانحراف يحمل بعض المتأملين على الاعتقاد بأنه هدمها في نفسه هو ، فلن يؤثر ذلك في العقل العام .

إن الطفل حين يلتقم ثدى أمه لأول مرة بعد ولادته ليحس الشبع ، لأعظم مفحم لأكبر فيلسوف يهدم تلك الحقيقة كما قدمنا . بل إن إدراك البذرة للإنبات في الظلام والثرى المبلل لأدعى إلى اعتبار تلك الحقيقة من الإلهامات الفطرية في كل الكائنات الحية .

والذى يزعم نفسه عاقلاً قادراً على أن يحكم على « روح الوجود » بما يريد ، ثم في الوقت نفسه يسلبه - عزّ وتعالى عما يصفون ! - قوة الحكم

والتدبير والإدراك : جزاؤه ما جزاؤه ؟ إن اللغة تضيق عن نعت له يرضى غيظ
السّموات والأرض من دعواه ! جزاؤه أنه قال ما قال ، وذلك حسبه لعنة !
ومما يجب أن يلتفت إليه أن أجراً الناس على الشك في الخالق أو الإلحاد
في ذاته وصفاته كان مبعث جرأتهم السكر والتخدير . . . والسكر نوعان :
سكر باللذة وسكر بالألم . وجرأة السكرى باللذة جرأة سطحية . جرأة طيش
وسخرية واندفاع ، كجرأة الخيام والنواصي ، ولكن جرأة السكرى بالألم
جرأة غيظ وحقد وعناد وتمرد وقنوط وتحذ ، وهؤلاء هم أثقل شراً وأكبر لعنة
فالمعري في بعض أحواله ، وشو بنهاور ونيشيه وأمثالهم من المتشائمين
المعطلين غضبوا على الحياة ونظامها وأدمنوا الآلام ، وصاروا يناقشون الخالق
فيما خلق مناقشة الند للند . . . فلا الخير خير ، ولا الشر شر ، كما رسمهما هو
في الطبيعة والشرعية ، وإنما الخير والشر ما يرسمون هم . . .
وقد أطفأ الأولان شعلة الحياة في جسديهما ، ودعّوا إلى إطفائها في أجساد
الناس جميعاً ، حتى تخرب الأرض وتفنى إنسانيتها .

وماذا كانت تكون النتيجة لو أن الناس كلهم كانوا رهبان تمرد وعصيان
كالمعري وشو بنهاور ؟ وكأني بالإنسانية وقفت موقفهما قائلة للخالق : هالك
الحياة التي أحييتنا مردودة عليك منطفئة الشعلة ! دونك الأرض بحيوانها
وشجرها ومرافقها لا نريد ! لا نريد ! وهانحن أولاء رهبان شرأيها الإله إلى
أن نموت ! فأى كفر أوقع من هذا ! ؟

ولكن الإنسانية التي في فطرتها وإلهامها الإيمان والطاعة والعبادة ، لا تنفك
تطرد من حياتها هذه الدعايات الشاذة السامة كما يطرد أفرادها الغوائل والآفات ،
ولا تزال سامعة مصغية واعية لذلك الصوت الذي يدوي بهذه الكلمة :

« يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ فَأَنْفُذُوا ! » . ولا تزال سائرة مأخوذة إلى غايتها في سلاسل من
الضرورات والرغائب ، بل لا تزال جِنَانُ الحياة وأناسيتها تنشد قائلة وهي سائرة
على الطريق :

« وَأَنَا ظَنَنْتُ أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَإِنْ نُعْجِزُهُ هَرَبًا .
« وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهَدَىٰ آمَنَّا بِهِ ، فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا
وَلَا رَهَقًا » . « رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ
فَأَمَنَّا » .

ذخائر الإيمان في العقول والقلوب

أعجب لتأمل لا يؤمن وهو دائماً يقلب حواسه في الطبيعة !
أهو يعجب إن رأى صنعة إنسانية تماكي نماذج الطبيعة ، ولا يعجب
من النماذج الحية الطبيعية التي تقذفها الأرحام وتمفتح عنها الأكمام ، وتنسجها
ظلمات الأرض ، وتصبغها أضواء السماء ؟ !

ألا يعجب من يقظة القوانين الدائمة الصيانة للذرة والمجرة وما بينهما ؟
أنا أدعو كل ملحد إلى شيء واحد : أن يعيد النظر في أبجدية الحقائق ،
وأن يستحضر وهو رجل كامل روح طفل يفتح عينه لأول مرة على الحياة
فيرى فيها كل شيء جديداً : الحياة الماثلة في الطبيعة المجردة لا في الطبيعة
« المحفوظة في علب » من الكتب والمصانع . .

أدعوه أن يترك الألفاظ الاصطلاحية التي ساقها الجدليون وأهل الخلاف ،
فدخلت إلى فكره واحتلته وخنقت الأصوات الطبيعية التي تنبعث فيه منادية
إلى الأوليات والمبادئ الفطرية دائماً . . . بل إني أدعو كل ذي لب وقلب :
أن ابتدئ حياتك . . . كن طفلاً من جديد . . . انظر إلى الدنيا بعين ريفي
فوجيء بزينه المدينة لأول مرة . . . انس ألفاظ الناس وتعاليمهم . . . إن
كثيراً من معلوماتك دخلت إليك وأنت قاصر لا تميز الخبيث من الطيب . . .
إنهم خدعوك في الحق وخدعوك في الباطل ؛ فليس كل الحق عندك حقاً ،
وليس كل الباطل كذلك . . . وقد بنيت أحكامك ، بعد أن كبرت واستقلت ،
على أشياء لم تتأكد من صحتها ، ولم تخبرها بكل عقلك وإلهامك . فأعد النظر
في كل شيء تظفر بلذة عظمى : : لذة انكشاف حقيقة نفسك ودنياها لك

لقد أتى (ديكارت) في الفلسفة الإيجابية الحديثة بشيء فكري ثمين حين أعاد النظر في نفسه ودنياها من جديد... إنه جدد حياة الفكر حين جدد حياة نفسه : فهدم كل ما فيها ثم أعاد ما يستحق البناء ، وذرّى أنقاض الباطل في الريح .

سترى الناس لا يسرون على الطريق الواضحة ولكن يتفرقون على دروبها المسدودة أو الموصلة إلى التيه... أو يستدبرون وجه الطريق ويستقبلون قفّاه... أو أنهم يتخذون قطاع الطريق أدلاء ومرشدين ورؤّاداً...

إن الطب الجسدى يدعو إلى صحة الأجسام بتصفية الفضلات والزوائد والأخلاق المضادة.. وكذلك يدعو الطب الفكرى إلى صحة العقول بتصفيتها ونقض ما فيها من أوهام وظنون كاذبة...

فماذا لا تصفى كل ما فى نفسك لتذهب فضلاتها وزوائدها وسمومها...؟
إن هذا يذكرك نفسك دائماً ولا يدعك تذهل عنها بالاشتغال بقشور حياتها ، وبالنزاع الكاذب عليها ، ولا يشغلك عن مواكب الحياة التى تمر أمامك فى كل لحظة .

إنه مسح لزجاجتها حتى تكون شفيفة صادقة الوصف والنقل لما وراءها .
والذهول عن النفس بالخبز والذهب والحديد ، فقّذ لها وإهدار حياتها الحقيقية ، وسوء فهم لطرق إمتاعها ، وإن طعم الحياة لا يذاق إلا بالتيقظ لها فى كل لحظة ونفس ، والإنسانية هى هذه اليقظة .

ومتى ابتدأت حياتك شعرت بنفسك ، ثم شعرت بيد قاهرة خفية تدفعك من غير إرادة منك ولا استشارة لك إلى هذه الدار العجيبة الكبيرة الهائلة :

الدنيا ، وتلك اليد هي مناط الإيمان ، يحنُّ العقل ولا يستطيع تصور الطبيعة خالية منها أو خارجة عن طوعها . . .

فالإيمان هو أن تدرك هذه اليد وتطيعها وتمجِّبها لأنها تريد لك الخير والجمال والسلامة والنجاة من جبروت القوى المادية العمياء الجبارة التي تزخر بها السماوات والأرض ، وأن تقذف بنفسك دائماً في حى هذه اليد القاهرة الحامية لحقائقها وقوانينها ، وأن تكون معها كما يكون الطفل مع أبيه : يَلُودُ به ويعوذ ، ويعتزّ ويفرح ، ويفتخر وينتسب !

فالإنسان بالإيمان ساندٌ ظهره إلى جدار من السموات والأرض ، مُحْتَمٍ بقوانينها ، سائر دائماً في صف جندها ، شاعر أنه قوة خادمة للإلهية ، عاملة لتصميم وإقرار الحياة فيهما ، فاهم أنه قيوم صغير نائب عن القيوم الأكبر ، تتجدد فيه الحياة ويتدفق فيضها المستمر الذي يحيا به مع كل الحيوات . ثم هو في مخاطبة فكرية دائمة مع المشيئة الغالبة العالمة البدعة التي تلتقي عندها الخلائق . . .

وإن إدراك معنى من معاني الإلهية في خفقة من خفقات الروح ، أمر يحطم الحدود الضيقة التي يعيش فيها الإنسان ، ويجعله يتسع للعالم كله ، فيرى الخلائق جميعها تلتقي وتزدحم وتنصب في قلبه . . .

فمن من المتأملين لا يريد أن يرى الدنيا جميعها في لحظة خارجة عن حدود الزمان ؟

من منكم يراصدى الدنيا يأبى لنفسه هذا الاتساع وهذا الإدراك لكل شيء في موضعه الحقيقي بين يدي الإله ، سواء أكان صغيراً كالذرة ، أم كبيراً كالجمرة ١٢ .

قولوا يامو صدى أبواب هذا العلم الرخب فى وجوههم وفى وجوه الناس ! .
أجيبوا يامدمرى سعادة الإنسان ، ومهدرى معناه ، ومضيغيه فى الأشواك
والصخور بين السعالى والفيلان !

أجيبوا يامشرديه فى أودية التيه ، وخاطفيه من أحضان أبيه ، وقاذفيه
إلى قرار اللعنات والطرذ والحِرمَان والفقد الذى ليس معه عزاء ! .
أجيبوا فإنى لا أقفه ماترمون إليه إلا أن تكونوا قطاع طرق الرحة ،
ومطاردى الإنسانية من رحاب سعادتها ، ولن تكونوا بذلك إلا شياطين
لا تظهر فى أثوابها ، أو ماجورين للشياطين تدفع لهم أجورهم من
الشهوات ! .

أجيبوا يا صانعى الألفاظ ، ومبلى خواطر الناس ، وجالبي شقايم الدائم
بالعى عن كل شىء يضىء ، والصمم عن كل شىء بصيح !

لقد جعلتم الناس يبحثون عن سعادتهم فيما وراء قلوبهم ، ولذلك يهدمون
كل شىء ويقتلعونه من مكانه ، ويفتحون كل مغلق كما يفعل الذى يبحث
عن متاع ضائع ثمين أليم الفقد . . .

كل هذا الجوح والغرور لأنهم اخترعوا طائرة وسيارة وراديو وتلغراف ..
لذلك أغضوا عن البعوضة والبعير ، ونسوا خالقهما . . نسوا الذى ابتدع الآلة
العجيبة التى فى رءوسهم وهى التى اخترعت هذه الأعاجيب التى بها يفتنون .

يقول توماس كارليل مامعناه « إن رفع اليد إلى أعلى لا يقل عجباً عن
طيران جسم فى الجو ، وسماع الصوت من قرب لا يقل عجباً عن سماعه من
آخر الأرض » .

فالمبدأ المعجز موجود منذ الخليقة يراد كل فكر يدرك الحق الأصيل
ولا ينساه إذا رأى محاكاة له .

والإيمان وصاية واسعة المسؤولية على كل شيء ؛ فهو رعاية للنفس والقربى
والرحم والوطن والإنسانية والحيوان والجماد . . . نعم الجماد ، فله على المؤمن
أن يضعه موضعه في الفكر والعمل ، وأن يحمله ويسخره ويتأمله ويسبغ عليه
من حياته هو . . .

فالمؤمن ليس فرداً أنانياً ضيقاً ، وحياته ليست له وحده ، وأبناءؤه يلدُّهم
لجيش المبدأ الذي يعمل له ، وهو متحرر من سلطان كل شيء ، لأن معه كل
شيء . . . إذ كان على موعد مع الكون كله عند ملتقى كل شيء .. عند الله
الذي إليه تصير الأمور . ! فله عين ممتدة البصر وراء الذي يفنى منه هنا ،
تسير معه وتعرف مقره النهائي .

فأَيُّ سَمَوٍ وَغَنَى وَخُلُودٍ لِلنَّفْسِ يشبه هذا فيما بين يدي عشاق الخلود من
الفنانين والعلماء ؟ ! فمن يبتغ الخلود فليلتزمه عند ملتقى كل شيء ، وكل ظل ،
وكل ضوء وكل صوت !! .

ما بين المؤمن وبين الإلهية شيء من الحب لا يقاس معه شأن آخر من
شئون الحب في قليل ولا كثير . . . لأنه يدري أن أباه الحق هو واهب
الحياة وحافظها ، والقائم عليها ، والمنظم لآلاتها في جسده ، وليس لأبويه
الجسديين من ذلك الحب شيء إلا لأنهما سبيل شعوره بالرحمة والحب من
الإله الذي أوجده ليتمتع بأفانين الدنيا وأفانين حياة النفس ، وإنه ليرجع إلى
الله في كل أمر سارٍ أو ضارٍ بفرح طفلٍ أو حزنه .. وإنه ليدري أن لضحكه

ودموعه صدى عنده . . وشتان بين معتقد هذا ومحسه ، وبين من يرى نفسه وحيداً بين معارك الدنيا وحرب الشر والخير ، ليس معه عين إله يرعاه ! .

إن الثاني يدخل إلى الدنيا ويرأها داراً من غير صاحب يملكها ويتعدها ويؤنس فيها ؛ فهي عنده سُدى ، ليس لأحد فيها حرمة إلا بمقدار قرّته ، فيأخذ منها جهرة إن وسّعه الجهر ، وخِلْسة إن أحسنّ القهر . . لاحدود أمام أطاعه ، وأطاعه غير محدودة ، والإنسانية عنده قطعان أبدّة متوحشة ، لارحمة بينها ولا حب إلا في نطاق الضرورة الغامضة .

وأى شقاء للنفس إذا لم تعرف أن للدنيا مالكا ! إنه شقاء يوحى بالجريمة في صور فظيعة فاجعة كجريمة الذى أحرق « روما » بأهلها ، وكجرائم « جوزيف فوشيه » وزير نابليون ، الذى استعمل كل ذكائه في التنكيل والتخريب ، وخدع نفسه إذ كتب على قبره « الموتُ نومٌ أبديّ . . » ، وكجرائم الفوضويين والمعتطلين والدهريين الذين يرتكبون كل شنيعة على حساب العدم . .

لا يدخل قلبَ المؤمن شيء إلا بعد استئذان إيمانه ، وما عرفتُ سلطاناً لشيء على النفس مثل سلطان الإيمان كما غرسه وعمّقه القرآن . . وإن النفس لتجابه كل شيء به ، فإن كان من عوامل البطش استمدت من جبّار السموات مدداً عليه ، وإن كان من عوامل الرحمة استمدت من الرحمن صوراً من رحمته .

وإن المؤمنين ليصبرون على غزو الشبهات لعقولهم ولا يدعّونها تصل إلى قلوبهم . . وهم أكثر الناس انقذاً بالشبهات ، لأنهم ليسوا أغبياء ولا عجمّة

مغفلين عما في الدنيا من الأحاجي والألغاز؛ فعقولهم دائماً في احتكاك مع حقائق الحياة والآراء والمذاهب والأديان ، وفي تعجب دائم قد يصل بهم إلى درجة الحيرة « ولم تزل الحيرة سمة العارفين » .

وَلَمْ أَرَ إِلَّا وَاضِعًا كَفَّ حَيْرَةً عَلَى ذَقْنٍ أَوْ قَارِعًا سَنًّا نَادِمًا !

نهاية إدراك العقول عِقالٌ وَغَايَةُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالٌ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طَوْلَ عَمْرِنَا سَوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا

قَالُوا وَقُلْنَا دَعَاوَى مَا تَفِيدُ لَنَا إِلَّا الْأَذَى وَاحْتِجَاجًا فِي الْمَدَاجَاةِ

وإنهم ليعلمون أن الله راصدٌ لهم الفتنة ليصفّيهم ، ولا يأخذ منهم إلى قدسه وشُرُفات عرشه إلا من يَثْبُتَ على اتّجاهه إليه ، برغم حُجب الغيب الكثيفة من جهة ، وبرغم أضاليل الحياة واختلاف بعض صورها في ظاهر العقول القاصرة ، وبرغم هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَتَزْغُمِهِمْ : « وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ » .

« إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » .

وإنهم ليكتُمون ما عساه يصيبهم منها في صدورهم ، علماً منهم أنها أمراض طارئة في فترة الشك الذي قد يصيب الباحث ، كما أصاب الغزالي أبا الزهد والمعرفة ، حتى « تكسرت عنه العقائد الموروثة » كما يقول في كتابه : (المنقذ من الضلال) ، فيرون تحصيل الناس منها ، حتى تبرأ قلوبهم ويهديهم الله إليه بعد جهادهم فيه ، فيعرضوها بعد ذلك مع دوائها وبراهين كذبها وبطلانها ، وعلماً منهم كذلك أنهم ما أوتوا علم كل شيء ، وأن أساطين علم الظاهر لم يعرفوا إلى الآن ماهي المادة التي هي أول ما يدرك . . . دع عنك

ما خفى فى عالم الآفاق وعالم الأنفس ، وعلماً منهم كذلك أن أكثر الناس ليسوا مثلهم متفرغين للتفكير فى الحقائق ومقابلة بعضها ببعض ، وإنما أكثرهم يأخذون الحقيقة أو الشبهة أو الأضلوة فيعيشون بها طول حياتهم ، وقد يموتون عليها إلا أن يتداركهم الله بمن يغسل قلوبهم من الشبه والأضاليل .

تلك ذخيرة الإيمان فى العقول والقلوب المؤمنة ، فأين منها تفرغ الإلحاد لقلوب أهله وعقولهم من كل معانى عزائها وهنائها وقوتها وخلودها ؟ أين منها ملأه إياها بكل معنى أئيم أو تافه أو فانٍ أو يائس ؟ يا بؤس من أراهم فارغى القلوب وقد صاروا الآن لا عدد لهم !

لقد ضاعوا لأنهم فقدوا معانى عزائهم ...
وعندى أن كل ملحد يجب عليه إخلاصاً للإلحاد ، أن يكون مجرمًا سفاكاً أنانياً وحشياً حتى يحقق مقتضيات إلحاده . . فلا فائدة من الأخلاق والعلوم ما دام القلب فارغاً من الله ..

فما هو الحق وما هو الشرف لولا الله !!

كل المعايير ساقطة باطلة مضطربة إذا لم تكن فى يده هو . . . !
كل الصدق كذب ، وكل الخير شر ، إذا لم يقله لنا هو . . . !
لعمري الحياة لو كان الإيمان كذباً لكان ألد وأنفع من الصدق ! وما دام الإنسان يطلب السعادة والراحة فلماذا لا يطلبهما فى هذه المعنى ! لماذا يخطئ معنى دوامهما ؟ افرضوه كذباً . . . فهل برئت حياتكم من الكذب ؟ إنها مجموعة أكاذيب مات منها حكماءكم غيظاً أيها الناس !

إنه قياس أدركه الأقدمون واختار العقلاء منهم ما عبر عنه شاعرهم بقوله :

قال المنجم والطبيب كلاهما : لا تبعث الأجسام .. قلت : إليكما
إن صح قولكما فليست بخاسر أو صح قولي فالحسار عليكم ..

وما دمتم تقيسون قيمة الشيء بالمنفعة ، فأينما شيء أنفع من آثار الإيمان
في حياتكم ؟ إنه أعظم معنى جلب النفع للبشرية . وقصة تقدم الإنسانية
هي قصة المؤمنين منها ؛ فإنهم هم الذين تسلموا قيادها مرحلة مرحلة ، إذا حسوا
الإيمان بالقيوم الأكبر ، فأحسوا الوصاية نيابة عنه على القطيع القاصر ،
وحملوا أعباءه ونهضوا بها نهوض الذين لم يستول عليهم ضعف البشر ، فهم
أولو العزم ، في قلوبهم ذلك المعنى الحديدي الذي لا يفلى منه شيء : وهو
الصبر ! « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم
إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » .

فكل معاني شرف الإنسانية شعب وفروع من تلك الأرومة ذات الأصل
الثابت في الأرض ، والفرع الذاهب في السماء ..

ولذلك لو تغيرت فكرة الإلهية فيجب أن تتغير موازين الخير والشر .
ولسكن في ضمير الإنسانية إيماناً عميقاً بالخير كما هو ، وكفراً عميقاً بالشر كما هو ،
وقد أدى ذلك الوضع الفيلسوف الإنجليزي « باركلي » إلى أن يأخذ من هنا
برهانه على أن هناك عقلاً أعظم قد أقر موازين الخير والشر في القلوب كما هما ،
لأن الخير والشر عنده كذلك ..

نداء الزمان

الله والإنسان والحياة

— ١ —

« أما بعد » فهذا نداء الزمان ، ينادى به كلُّ قائم في الكون
والنفس والحياة : —

جدّدوا الإيمان بالله رب الوجود واهب الحياة كما وصفه القرآن القديم ،
وحدّثنا عن أعمال يده العلم الحديث ! .

فرّوا من طنين الشكوك والفلسفات الحائرة حول « الأول » الذي
صدّرت عنه جميع الموجودات ، وأنشئت بتدييره واختراعه ، ونسقت بفنه
وابتداعه ، ودامت بحفظه ورعايته ! .

واعلموا أن مفتاح الشر وباب الضياع هو الشك في تلك الحقيقة الأولية
العظمى ، والانفلات من قيودها ، وهي قيود أمانات الحياة كلها ! .

ابدءوا حياتكم الفكرية بالحديث النفسى والبيانى عن تلك الحقيقة
لتعرفوا إلى جلالها وجمالها ولتطردوا عن أذهانكم وشوشة الشر وشوشة
الباطل .

ابنوا أساس حياتكم على صخرة تلك الحقيقة الراسية ، وقاعدتها العريضة
الواسعة ؛ لتطمئنوا على أن وجودكم مستند إلى وجود أعظم ! وليس وهماً طائراً
في أجواء هذه القوى العمياء التى يَرُخَّرُ بها الكون المادى .

اضربوا في رحاب الحياة ومآلاتها ، ثم عودوا إلى مكانكم الأول في أحضان تلك الحقيقة ، مهتدين بالنور الذي يشع من مناراتها ، مستمسكين بالعرى الوثقى التي تمتد منها في كل اتجاه إلى الفرقى والضائعين والشاردين ! .

املاؤا وجودكم بهذه الحقيقة واجعلوها تستبد بخواطركم ؛ فستكونون سعداء بهذا الاستبداد ، لأنه استبداد أساس البناء بالبناء كله حتى لا يُحدث نفسه بالبعد عن دعامته الأولى ؛ فينهار ويذهب هباء تذرؤه الرياح . .

إنها حقيقة تبث ذلك الشعور الصادق العجيب بالانسجام مع الكون كله ، وحسبكم به من سعادة ! وبلاستناد إلى دعائم الكون كله ، وحسبكم به من حماية ! وبالوصاية على أماناته كلها وحسبكم بها سيادة ! وبارتفاع العقل والقلب إلى مستوى رفيع يعلو بنظراتهما ويَرْحُبُ بمخاطرتهما وَيَقْمُقُ بأسرارهما ؛ وحسبكم بها كرامة ! .

وعلى الباحثين عن مصادر السعادة الفردية والجمعية ، وعن المَسَرَّات الأصيلية في الحياة ، أن يفتحوا عيونهم وعيون الناشئين في الجيل الجديد على هذه الحقيقة دائماً ويمسكوا بعرى أسبابها ، ويعرفوها معرفة الرأى في عقولهم والدم في قلوبهم !

وعبث لا طائل وراءه ، بل عناء ضائع ، بل جريمة مُوبقة أن يتجه محبو الإصلاح بقلوب الناس إلى قطب غير قطب تلك الحقيقة ، فإنه لا حق ولا طهر ولا عدالة ولا أمانة إلا في محيطها .

فليعرف ذلك الذين يدعون إلى تأسيس حضارة نفسية جديدة ، ويريدون أن يلائموا بين سياسة الاجتماع الإنساني والسياسة التي تتجلى في الطبيعة كلها .

وَحَسْبُ الْإِنْسَانِيَةِ مَا مَضَى مِنْ تَجَارِبِ الشُّرُودِ وَالْجُحُودِ وَاللَّعِبِ بِالْأَلْفَاظِ ،
وَالْإِنْطِلَاقِ وَرَاءَ خُدَاعِ الْفَلَسَفَاتِ الشَّاذَةِ ، وَافْتِنَانِ أَرْبَابِ « التَّرَفِ الْعَقْلِيِّ »
الَّذِينَ يَتَشَهَّوْنَ كُلَّ غَرِيبٍ مِنْ الْآرَاءِ يَقْدَمُ إِلَيْهِمْ عَلَى مَوَائِدِ الْفِكْرِ ،
كَأَيْتَشَهَّى أَرْبَابُ التَّرَفِ الْمَادِي كُلَّ غَرِيبٍ يَقْدَمُ إِلَيْهِمْ عَلَى مَوَائِدِ الْبَطُونِ ...

— ٢ —

آمَنُوا بِالْإِنْسَانِ الَّذِي تَحْمِلُونَهُ فِي أَجْسَادِكُمْ ، وَتَسْتَوِحُونَهُ فِي أَفْجَارِكُمْ ،
وَتَبَادِلُونَهُ مَا صَحَّ وَمَا فَسَدَ مِنْ شَتُونِكُمْ ! .

آمَنُوا بِهِ لِتُؤْمِنُوا بِالْكَوْنِ وَرَبِّ الْكَوْنِ . . . فَلَنْ يُؤْمِنَ بِهِمَا مَنْ
لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ ؛ لِأَنَّ عَقْلَهُ هُوَ الْمَنْظَارُ الَّذِي تَرَوْنَ بِهِ كَوْنَكُمْ وَرَبِّكُمْ ، فَإِذَا أَهْدَرْتُمْ
قِيَمَةَ الْإِنْسَانِ أَهْدَرْتُمْ عَقْلَهُ ، فَلَمْ يَبْقَ لَكُمْ مَا تَدْرِكُونَ بِهِ وَجُودَكُمْ وَرَبِّكُمْ (*) ! .

وَلَكِنْ تَدْرِكُوا اللَّحَاتِ الَّتِي تَتَرَاءَى فِي أَعْمَاقِ مَعْنَى الْإِنْسَانِيَةِ ، حَاولُوا
أَنْ تَتَحَرَّرُوا وَتَتَجَرَّدُوا وَتَخْرُجُوا مِنْ نَفُوسِكُمْ وَنَوْعِكُمْ ، وَتَرُصُّدُوا الْإِنْسَانَ
بَعْيُونَ غَرِيبَةً عَنْهُ ، وَتَرَوُهُ بِنَظَرَاتِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى مِمَّنْ هُمْ فَوْقَهُ ، وَالْمَلَأِ الْأَدْنَى
مِمَّا هُنَّ دُونَهُ ! .

فَأَيَقْظُوهُ لِنَفْسِهِ ، وَنَبْهَوهُ إِلَى امْتِيَازِ وَضْعِهِ ، وَأَقْرِئُوهُ مَا يَكْتُبُهُ هُوَ نَفْسَهُ
الْآنَ عَلَى صَفْحَةِ الْأَرْضِ . . .

وَاتْرَكُوا الْجَدَلِيَّاتِ الْقَدِيمَةَ حَوْلَ قِيَمَتِهِ ، فَقَدْ هَدَّرَتْ شَقَاشِقُهَا حِينَ كَانَ
عَاجِزًا عَنْ شِقِّ الطَّرِيقِ أَمَامَ فِكْرِهِ .

(*) وَلِذَلِكَ كَانَتْ قَضِيَّةُ الْإِيْمَانِ بِالْإِنْسَانِ مِنَ الْقَضِيَّةِ الْفِكْرِيَّةِ الْأُولَى الَّتِي لَا يَبْدُ مِنْ لُغَاتِهَا
أَوَّلًا ، كَمَا بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي [أَوْمِنْ بِالْإِنْسَانِ] .

اخرجوا من غبار التاريخ القديم ، وافتحوا عيونكم على العالم ك مخلوقين
الآن ، تفكيرهم ابن زمانهم هذا ، ومنطقهم من وقائع الحاضر .

انظروا إلى الإنسان في نصابه الأعلى دائماً ، ولا تنظروا إليه في حضيضه
الأدنى ؛ فإن من طبيعة كل كائن حيّ أرضي أن يكون له جذر في الطين
والعقونات ، أو أصل في الدم وبعض القاذورات . .

وإن النطفة التي خلق منها الإنسان أخلاطاً وأمشاج أخذت من العناصر
الحادة والقوى العمياء ، ما يجعله منها على اضطراب وابتلاء . . « إنا خلقنا
الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه » وإن الفرد يحمل في مجارى طعامه وفي
أحشائه أوضاراً وأقداراً بحسبة تشمئز منها نفس حاملها ، ومع ذلك هو يقنع
من نفسه بتقدير الوجه والرأس الذي يحمل الشخصية وقوى الفكر . . .

فلا تنظروا دائماً إلى الذين هم فضلات في جسم الإنسانية وتتخذوا منهم
« مقطع » النظر إليها جميعاً ، فيجملكم ذلك على التشاؤم والسخط والشك
في الخير والجمال الذي فيها .

هم كالثمار الفجة أو المعطوبة ، عطبت وتلوثت ، لأنها سقطت من ضعف
روابطها بفروع الشجرة التي تسمو . .

إننا نحمل أقباساً منيرة مطهرة من عالم الحق والطهر والجمال ، ولكنها
وضعت في أجسامنا ، تلك الأوعية الطينية السريعة التعفن ؛ فن الناس من
يدوم على تطهير وعائه وصله حتى يستحيل إلى زجاجة شفيفة رائحة تساعد
ذلك القبس على السطوع والإشراق .

ومنهم من يتركه كما هو من غير تطهير وصل بالعلم والتهديب ، فيظل
مُعْتَمّاً ويحول بين ذلك القبس وبين السطوع الكامل . . .

ومنهم من يضع في ذلك الوعاء ما يزيده عتمة وكثافة تطفئ على ذلك
القبس وتمحق شعاعه وتجعله منبع ظلام

فلأجل النور ! نَبِّهُوا كل مصباح إلى رسالته ، وَحَوِّلُوا بين الظلام
وبين زجاجته

ولا تحملنكم حياة الظلام الراهن على أن تتشاءموا وتسخطوا وتحطموا
ما بقي لكم من مصابيح ، فتعيشوا في عمياء نهارها كليلها

— ٣ —

صدقوا الحياة وكذبوا المتكلمين الذين يعارضونها ، ويزعمون أنهم أصدق
منها ، ويُفَرِّقُونَ الناس بسببها وتحقيرها ، ويملأون قلوب فتيانها الناشئين
بأحاسيس السخط عليها قبل أن ينالهم منها ما يبرر ذلك ، ويخلقون لأنفسهم
عوالم خيالية منفصلة عن الحياة ومنطقها العملي ، ويقذفون بكلمات جوفاء على
كلمات البدهة والطبع فيحجبونها عن أنظار القاصرين الذين ينظرون نظراً
سطحياً ، فيذهبون ضحايا الانخداع بزخارف القول الغرور ، وأوهام الفكر
الشرود

والحياة بالغة الحجب ، مفجمة المنطق ، جارفة التيار ، تدفع الإنسانية دائماً
إلى مجراها الذي يعبُّ غبابه ، وتتضرَّب أمواجه على رغم هؤلاء المتكلمين
المتشائمين . فلا سبيل إلى الوقوف في وجهها وتحويلها ، وكل من زعم أن
منطقه أصدق من منطقها فله ماشاء من زعمه . أما أبناء الحياة الذين سادوا فيها
فلا يعرفون إلا وجه أمهم الواضح القسَمات المعروف السَّمت

واعتقادي أن الذي جنى على الدين أن الناس حسبوا منطقة الدين منفصلة
عن الإحساس العام بالحياة ، وزعموا الدين لغير الحياة الدنيا ، فخابهوها بقلب

مُوزَع وفكر حائر بينهما ، وحاول المتعبدون منهم الفرار من الدنيا قبل أن تستوفى ضرائبها منهم ، ويستوفوا تجاربهم فيها ، وظنوا العبادة فترات انسلاخ من الحياة بالطقوس والرسوم وما إليها من المظاهر التي هي مواقف «استعراض» للمؤمنين لا أكثر... مع أن لبَّ العبادة هو أن تشعر دائماً في نفسك^(١) بفيض الحياة : ذلك الشأن الإلهي العجيب ! وأن تنيقظ لفعله في ضربات قلبك ، وخطرات فكرك ، ونبضات خلاليك ، وهمسات نفسك ، ولحاح عينك ... وألا تنسى أنك دائماً تتلقى ذلك الفيض من ينبوعه الأعظم إلى أجل ... فيحملك ذلك الشعور الملازم على أن تحافظ على وجودك الذي هو مظهر تلك الأسرار ومشكاة تلك الشعلة ، فلا تعطل قوة من قواه ، ولا تطمس رسماً من رسومه ، ولا تقعد به عن الزحام في مجالات العمل الكريم الذي يُذكي شعلة الحياة ويلقي إليها حطباً يَشْبُ ضِرَامُهَا ...

والوجود الإنساني الكامل الصحيح هو الذي ينتج الشعور الصحيح والفكر الصحيح ، والخلق الصحيح ، والعمل النافع الدائم ؛ وهو الذي أنتج وسائل التغلب والسيادة على عقبات الطبيعة ، والقدرة على تمهيد الأرض للإنشاء والتعمير ، وتخفيف المشقات والآلام ؛ وهو الذي حقق تلك «الكرامات» العجيبة الدائمة التي أكرم الله بها الإنسانية على أيدي علمائها الذين جعلوا همهم البحث عن أسرار صنعة الله وقراءة كلماته الظاهرة والباطنة في الآفاق وفي الأنفس ومحاكاة نماذجها .

وإذا كانت كرامات الأولياء أمراً مؤقتاً خاصاً بهم ، فإن كرامات علماء الطبيعة أمر دائم مشاع للإنسانية جميعها .

(١) بينا هذا المعنى بيانا وافيا في مقالات « الحياة صادقة » التي سنشرها بمجموعة عقب هذا الكتاب بعشبة الله .

فلنعرف ذلك جيداً ، ليعلمنا على الاعتراف بصدق الحياة والإقبال على الكشف عن أسرارها ، والإيمان بأن جميع أحلام الإنسانية في السيطرة على شئون الأرض ستحقق قبل انقضاء رحلتها على سطحها . . .

وينبغي ألا نخلط بين شرور الإنسان وآلام الحياة التي لا دخل للإنسان فيها حين يتحدث عن صدق الحياة ، فإن الحياة من يد الله بريئة صحيحة قليلة الشر والألم ، ولكن الذي يضاعف الشر ويمحو بشاشة الحياة هو الإنسان القاصر الجاهل الناشئ في أحضان السفاهات والجرائم والإهدار لقيمه . . ومن هنا وجب الإيمان بالإنسان وإيقاظه لنفسه أولاً على نحو ما قدمناه في هذا الصدد لكي يقلّ شره ، وينمو خيره ، فيظهر وجه الحياة الجميل البريء ، ويظهر وجه الإنسان المنشود ، ويظهر وجه الله الرحمن ذي الجلال من خلالهما ؛ حتى يراه كل فكر جحود وقلب كنود !

« سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ! »

وتلك نبوة الحياة الصادقة ، يبعثها سر الإنسان الذي نفخ الله فيه من روحه ، وجعله خليفة في الأرض ، ليظهر غيوبها ويثير دقائقها ، ويلبّس برؤوسه الحية موادّها الميتة فيجعلها تحيار روحه وتفكر بعقله وتخطو بسرعة فكره !

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا . . . »

وذلك هو حديث الزمان يرسله في أذن الإنسان ، خلال صيحات وحوش الحديد والفولاذ الرابضة والسائرة والسابجة والطائرة ، وبين دوى الآراء والمذاهب الهدامة والفلسفات الشاردة الحائرة . وأعتقد أنه نداء يجب أن يكون عنواناً لتجديد الدعوة الدينية في هذا العصر الحائر المتهاافت ، وأساساً فكرياً صالحاً لوصل العقول والقلوب بأعماق الكون وإب الإنسانية وصدق الحياة !

« وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ . »

الفهرس

الصفحة	الموضوع
ج	الإهداء
أ	بيان

مقدمات

٢	مسألة المسائل
٥	العقل الإسلامى والمسألة الدينية
١١	الذى ضيع الدين
١٧	تطور واجب فى فهم الدين

فى أصول الموضوع

٢٦	الإيمان بين العقل والوجدان
٢٩	خالق الكون — المدخل إلى الإيمان به
٣٧	خالق واحد
٤٩	حديث الفلسفة
٦٠	حديث العلم
٧١	حدود بين الله والإنسان والطبيعة
٨٤	النبوة والوحى والمعجزة
١٠٥	العدل الإلهى
١١٩	بين الإثبات والإنكار
١٢٨	ذخائر الإيمان فى العقول والقلوب
١٣٥	غدا الزمان

نحو أساس روجى للحضارة المادية

سلسلة ذات خمس حلقات يحاول بها المؤلف أداء واجب من واجبات الفكر الإسلامى الحديث فى التمهيد الفكرى والوجدانى لقيام الحضارة الروحية المادية المنشورة

١ - أومن بارئسانه !

نظرة جديدة إلى الكون من خلال نظرة جديدة إلى الإنسان . (مكتبة النهضة المصرية)

٢ - العقل المؤمن

٣ - الحياة صادقة !

دعوة إلى التفاؤل فى فهم وجهات الحياة والتعرف إليها والإقبال عليها بالعمل المثمر والكفاح الصابر (تحت الطبع)

٤ - صلوات فكر فى محارب الطبيعة

تأملات عقلية وخطرات وجدانية ترجع الإنسان إلى الطبيعة وتوقف فكره إلى أعاجيبها واجتلاء جمالها والتعبد لبارئها (تحت الطبع)

٥ - محمد يرمع !

نهضة الروح الإسلامى الحديث لمشاركة الروح المسيحى والروح اليهودى إقامة الحضارة المنشودة (تحت الطبع)